
رواية
شواطئ الدم
شواطئ الملح
ابراهيم حسن ناصر



شواطئ الدم شواطئ الملح

الرواية الفائزة بالجائزة الاولى
((لمسابقة قادسية صدام للرواية ١٩٩٠))

للشهيد ابراهيم حسن ناصر

الاهداء . . .

الى أبطال الفوج الثالث – لواء (١٠١) وشهدائه الأبرار . . . .

شواطئ الدم شواطئ الملح

دمع فضي أو خمر .فضي لا أدري – ما الفرق – كل شيء يوحي بأشياء اخرى.حرب حمراء ،او سوداء لا فرق ، فالأولى تولد الثانية .اناس او كائنات بلا قرار هو غايتنا ... عندما تدفعنا اهواؤنا نحو قتل الفضيلة في مهدها.. تكون الحرب منارنا العالي في مملكة الانسان .نحن ضد الكائنات الاخرى ،بل ضد انفسنا .من مات ؟ من عاش ؟– فكر معي — تأمل .من عظم شأنه ؟ انظر ؟ انه الذي يملا الارض انيناً انه جلادها. أحبائي لا شيء ينقذنا سوى الموت ؟ والموت منا قريب بل ابعدا من اللانهاية ، وجلة ساعاتنا بل ثقيلة متماسكة اهواؤنا ، بل متلاشية. أي شيء يأتينا من الغيب و أي فرح لا ينتهي الا بمأتم ، واي مأتم يدوم ، هي هكذا لعبة الصغار — الكبار — هي هكذا لحظة الحرج ..ومضى الجمال .

ذاب قلبي في تراب المواضع ، عانقتني رائحة المنسيين الشرفاء من رجال هذا الزمن..وجوه محدقة في موتى..بل موتى محدقون في موتى..أدركت سر وجودنا وفنائنا..في امتداد المدى خندق يقي النار..بل يولد النار ، منها. حيث النار هو مأمن منها .لتحيى وتبقى عليك ان تحترق ، عليك ان تكون نيازك أصحابك.هذه فلسفة البقاء لقرن التكامل والذروة. عندما تكون المصالح فوق الشرف تسقط القيم ويرتفع النفاق فوق الجبين..

امتداد المواضع حتى الافق..تراب أزلي ..انه اصل كل شيء،ونهاية كل شيء،قبب من تراب تخفي تحتها أرواح وحديد وبارود..خندق مثل نهر الخرائط ملتوٍ حسب ساحة الحرب. ووجوه تسبح فيه أو ضايقها..هنا تبدأ لحظة الحسم والصدق والمصير.

البحيرة الاصطناعية التي أمام السرية.باضطرابها أرهقتها المدافع والصواريخ التي تنفجر فيها ، انها الفاصلة بين نارين يتراوح عرضها كيلو متر. اقل أو اكثر في بعض المناطق وعمقها لا يتجاوز المتر..ارى على ضوء الشمس من خلال ملجئي قفزات الاسماك الفزعة أو حركة زعانفها وهي تعيش في الماء وتولد الموج الخفيف.

بامتداد الخندق الموازي للبحيرة تنغرس ملاجئ الجنود،يتوزع الخندق صف الرشاشات والبنادق والقاذفات للفصيل الحادي عشر من السرية الرابعة –الفوج الثالث–لواء(١٠١) باتجاه العدو.

وقفت في ملجأ الرشاشة الخفيفة. افحصها وبرفقتي الجندي عددها بنظرات تأمل أو ترقب في اكتشاف شيء مني ..انه يريد ان يعرف المزيد عن آمره الجديد. عن الضابط الذي امتدحه آمر السرية ..لهم أمس قائلاً:

انه الملازم مراد–مجند–كان قبل أن يأتي الى هنا في معسكر تدريب ((فايدة))..سيتولى مهامه من اليوم ،فسهلوا مهمته..

انغرست نظرات الجندي في ملامح وجهي ،يريد ان يقرأها .كاد ان يسألني لولا مغادرتي موضع الرشاشة..مشيت في الخندق أريد ان اعرف مواضع الفصيل كلها ..يتبعني عريف الفصيل.

دخلت موضع قاذفة اربعين مليم، فجأة سمعت أحد الجنود يغني غناءً يوحي بالشوق ..قطع غناءه و أستعد معتذراَ..ابتسمت..وقلت : اذا طابت النفوس غنت..

وقلتُ في نفسي انه مطمئن وهذا يعني انه على قدرٍ كبير من المعنويات ،لم البث كثيراٍ بل لحظة وتركتٌ مواضع القاذفة الى المواضع الاخرى ،استطعت ان أدخل مواضعهم جميعها لكني لم اتمكن من معرفة أسمائهم بسرعة ولم استطع أن اكمل ترتيب مواضعي الدفاعية.لكني سأعرفها لا محالة في الايام القادمة.

ان مايشغلني هو جبهة العدو..انني كجديد اريد ان اعرف عنه الكثير .ماقاله لي آمر السرية لا يشفي غليل ثم اني أتردد أن أسأل الجنود،لكني بقرارة نفسي مرتاح ومطمئن لأني سأعرف كل شيء.

جلستُ في ملجأ الراحة المخصص لي..غرفة صغيرة،بل زنزانة عرضها متران وطولها ثلاثة امتار،طن من التراب فوقها تنغرس في الارض حتى منتصفها ..الرطوبة الكثيفة تكسو أرضها بفعل البحيرة و أرض البصرة السبخة..تغزوني اسراب من البعوض المتوحش والذباب الاهوج الذي لا يقطع الانين.كل شيء هنا مفزع..جلست على سريري وأمامي طبلة خشبية صنعها الجنود لي من صناديق عتاد الهاون.اسمع اصوات انفجار القذائف المعادية..لقد أستقبلني الاعداء ،كعادتهم قصف مدفعي كثيف على قطعاتنا..وقت الغروب والفجر..يقابل ذلك قصف مقابل من قطعاتنا ، وهكذا ان توقف السلاح الخفيف يبقى السلاح الثقيل سيد الموقف و لا ينقطع اطلاقا..

اضطجعت على سرير ، متعب ..غريب على المكان..الحرب غاية أم وسيلة؟ ان الحرب غاية للجنون ووسيلة للموت ،لا شيء غير هذا ...ان يدفعك عدوك الا ان

تحاربه ،ان يجبرك على ان تسفك دمه فهذا هو الجنون بعينه..ان الحرب لعبة النار التي لم تنطفئ أبدا بل تطورت وسائل اتقادها واستحال اخمادها،

شرق البصرة أو غرب ايران لافرق،عدا هو موقعي من خارطة العالم المحترقة ،شمال النخيل الوارف الظل الذي أرقته الحرب وهجرته الطيور..في طريقي الى الجبهة عندما عبرنا الجسر مررتُ بغابة نخيل كثيفة..قال لي زميلي الضابط الذي جاء معي:

- أتعرف اسم هذه الغابة ؟

- لا... ثم اني من الشمال !

- ألم تحلم بزيارتها يوماً... الم تقرأ عنها ؟

- أهي جزيرة السندباد ؟

- هي كذلك

ساعتها تمنيت الا اكون قد رأيتها في هذه اللحظة، لقد أصبحت مجرد هياكل لنخل هرم وبساط يابس من اعشاب الحلفاء. أن هذه الجزيرة الفاتنة التي كانت مرتعاً لسفرات طلبة الجامعة.. تصبح هكذا. لم ار فيها سوى أمراة تلبس السواد تجمع الحطب..لقد هجرها الناس،لأن القصف المدفعي لا يرحمها ..نظرت باتجاه السقف ..جسور خشبية يتخللها آخر حديدي أكله الصدأ ، قرأت على الجسر الحديدي بخط بسيط: ذكرى المقاتل حمزة حسين –بغداد–الراشدية

قلت في نفسي أين هو الان ..أهو ميت أم حي؟ ..أتوجد للإنسان قدرة لمعرفة مكان الاشخاص الذين يقرأ اسماءهم في الصحف و على الجدران أو في الاعلانات أو على شاهدات القبور ؟ .. لماذا يهرب الاسم من حامله ؟.

اطلقت نظري نحو مصدر الضوء كفانوس ازرق وعليه علامة الخفاش التي جرتني بعيداٌ كنا صغاراً أنا واخواني الثلاثة نتجمع حوله مثل حشرات نقلب أوراقا كتبنا المدرسية .. ونبلل أوراق الرسم بزيته لنطبع صور القراءة الجميلة . أنا كنت شغوفا برسم الجبال.. لا أعلم لماذا ، ربما لان جبل مكحول أمامي كل لحظة.اما عبد الذي مات بالسحايا فقد برع برسم عباد الشمس كان يمتلك حساسية فنية ورهافة عالية..اللعنة لهذا المرض..مات وعمره أربعة عشر عاماً،لقد اخذ نصف عمري معه.انه لحد هذه اللحظة لا يفارقني ، وكل مناسبة احرص على زيارة قبره في طرف قريتنا لقد غطى قبره العشب ، اما اسماعيل فكان يجيد رسم الزورق ، يرسمه تهادى في النهر..كان ابي يتأملنا.شيخ كبير تجاوز عمره السبعين كأني اراه الان يداعب صخر مسبحته،و يحب اكل الخبز الحار الذي يدفئه على جمر الموقد ..كان يرسلني لكي أجلب له رغيف الخبز ويقول وهو يعلس الخبز الحار ويقدم قطعة منه لنا..الله كم هو طيب.. تفضلوا.. ناكل بنهم وبحرقة. مات أبي بعد بداية الحرب بسنة.. مرة،ما زلت اذكرها ، كان ابي يسقي حقل القطن الذي كنا نعول عليه كثيرا ، وكعادتها امي أعطتني غداء ابي لأحمله له .. في ذلك اليوم سمعت الأخبار الكثيرة عن حرب العرب واليهود- حرب تشرين عام ثلاثة وسبعين – تناقلت الاخبار ان العرب اسقطوا مائه طائرة يهودية وتتقد الجيوش العربية لتحرير فلسطين، كانت الفرحة تغمرني والآمال تملأ قلبي وانا فتى ، كنت اتجمع مع القروين حول

المذياع لنسمع انتصارات العرب على اليهود..حملت غداء ابي و انطلقت نحوه ، كالحصان الجامح . لأبشره بنصر العرب ، وأستطيع،بان انط بين الحقول والسواقي ،قلت لابي والفرح يغمرني :

أبي ..أبي لقد اسقطنا مائة طائرة يهودية و تتقدم الآن جيوش العرب لاحتلال اسرائيل وتحرير فلسطين . لم ينتبه ابي لي واستمر يداور الماء في الحقل ثم نظر الي بلا مبالاة و داوم بعمله ..ساعتها شعرتُ وكأن نصفي دخل الارض و اني بارد كالثلج ..أردت أن ابكي لكني لم أستطع ، كان وجهي أحمر محتقناً .غرس ابي مسحاته في الارض و احتضنني وقال:

- لقد سمعت هذا الكلام كثيرا.

- العرب جميعهم هذه المرة يا أبي !

- وهذه هي التجارب.يا بني انهم يتقاتلون بالمذياع فقط .

وقبلني ابي و أمرني أن ارجع .. رجعت للبيت متثاقل الخطى وأسال نفسي لماذا لم يفرح أبي ولم يعر اهمية لما قلت ..

تراكم السنون تجارب .. والألم تجربته مرة من المستحيل نسيانها. ..والماضي مرتعش.هما كان لأنه تراث ثم لأن شره قد عُرف ووقع فعله و انتهى تأثيره... تكون حجاره صماء .. و ضمير مرتعش ..أو لاشيء...لا فرق.. فالعالم لم يعد له القدرة

على تمييز الجيد ولم يعد قادرا على فهم الحقيقة. ..أن تموت في العراء جائعاً او تقتل في ملهى للبغايا ..لافرق.. ان تقاتل عن حق أو باطل سواسية ،انهم دائما مع مصالحهم و احيانا مع المنتصر و أن كان على الباطل .. أحس ان جفوني قد تثاقل فتحها وبدأ النعاس يغزو جسدي ..نظرت الى ساعتي كانت الواحدة ليلا .. كان يوماً حافلا بالجديد .. يوماً حقيقياً.. أغمضت جفوني ونمت. ..و تنشط أذني اصوات المدفعية وهدير الرشاشات.

عرفت من الجنود هاشم النحيل ..لكنه نشيط ..وعبد الحسين صاحب الصوت الجميل ومحمد الباقر و أحمد الصويلح و عريف الفصيل سلمان وغازي، ولم تمض أيام الا وعرفت اسماءهم كلها حتى عناوينهم ..وجهتهم ومن المتزوج ومن أعزب..وقفت في الملجأ وبجانبي العريف هاشم

-سلاحك بندقيه فاز ؟

- نعم سيدي.

- كيف هي في حرب العدو.خذلني في معارك بنجوين ..كانت دقيقة التهديف .. حين صوبت على أحد افراد العدو ..أصبته ووقع من أعلى الجبل بأول اطلاقة.

- اتدخن ؟

- لا .

- كيف تقضي فراغك.. أن الايام هنا طويلة ؟

-انام اغلب النهار و أستيقظ ليلاً ..انهم دائماً يهجمون ليلاً يستغلون الظلام .

التقطت الناظور.. وصوبت نظري باتجاه العدو ..بدا أن الاشياء أكثر وضوحاً ..بعض المواضع المعادية لرشاشات وبنادق ..في البحيرة هناك خمس دبابات معطوبة وشفل محطم ..انها هذه البحيرة موجودة ...أجلت نظري باتجاه شمال البحيرة توضحت نهايتها ، انها تبدأ بالضيق كلما أتجهنا شمالاً حتى تتلاشى عند احد سرايانا التي تبعد عن العدو مسافة مئتي متر ..اطلقنا على هذه السرية قاعدة الابطال .. لان الحرب بينهم متقدة ليل نهار ولايمر يوم ألا ويسقط فيه شهيد أو جريح.

كان هناك في وسط البحيرة مجموعة من طيور النورس البيضاء ..متكورة على بعضها ..لماذا هي هنا؟ ..أجائت لتذكر الاعداء بالسلام وبأن الحياة مكن أن تعاش بلا حرب ودم ؟

-عريف هاشم متى اجازتك ؟

-الاسبوع القادم.

-لا تنس أن تأتينا ببرتقال ديالى.

-أن شاء الله .. ان البرتقال أكثر حظا من النخيل فلم تحرقه مدافعهم.

- لا تأس على النخيل انه يتحمل الاعداء ، ليس مثل البرتقال رقيق ويموت بسرعة.

كان هاشم أب لاربع بنات أكبرهن في الثالث الابتدائي ، والصغيرة في حضن امها ..حدثني عنه عريف الفصيل وقال :

انه في معارك بنجوين أبلي بلاءاً حسناً . من وراء صخرة استطاع ان يقتل اكثر من جندي ايراني .. وعند تداخل القطعات واشتداد المعارك فقد لمدة يومين وحسب في عداد المفقودين ولكنه عاد بعد ذلك ومعه اربع هويات لجنود ايرانيين قتلهم ببندقيته .

رميت الناظور على دكة الملجأ .. نظرتُ بالعين المجردة باتجاه العدو.. ثم تاملت هاشم أبيض البشرة خفيف الظل ..تذكرت –عالية– اليعقوبية التي كانت أشدنا ذكاءً وحيوية في الجامعة .. جميلة يتدلى شعرها الذهبي نحو ردفها ..تعلقت بطالب أردني اسه زيد .. كان وسيماً، لقد احسنت اختيار المظهر.. تظاهر بأنه يحبها ..لكنه في النهاية تركها وعاد دون أن يتزوج منها في أحدى اجازاتي شاهدتها في كراج النهضة ..تبادلنا حديث الذكريات والماضي . سألتني :

- اين انت ؟

- كما ترين في العسكرية .

- و أنت ؟

- موظفة في الخطوط الجوية العراقية.

قلت لها و بلا وعي مني :

- هل سافرت الى الاردن ؟

لحظتها تغير لون بشرتها .. وقالت وهي مرتجفة الشفاه :

- أبهذه الصلابة تحدثني .. أجعلتك الحرب تفقد تهذيبك ؟

- آسف لم اكن اقصد ذلك .

وودعتها و اظن اني لن القاها الى الأبد..

قلت لهاشم :

- اتعرف عالية حسان ؟

- ماذا ..عالية حسان ؟!!! من هذه ؟! (قالها بتعجب)

انه لم يتوقع ان أسأل هذا السؤال .أسفت لتسرعي – ثم مادخل عالية حسان بهذا .. ومن أتى بها الى هذا المكان ؟..

- طبيبة نسائية مشهورة في بعقوبة ، أنها من أقربائي .

- لا .....آسف.

استطعت ان اتلافى تسرعي وزلة لساني . وتركته يقطع البحيرة بنظراته الثاقبة باتجاه العدو .. لكنه لم يعرف عالية حسان ..

تأتي الذكريات الجميلة على البال ... ومضات أمل .. اجترار لماضٍ لن يعود و لا أعرف كل ما هنالك .. ان الايام تمر وكل يوم لك فيه معارف و أصدقاء ، تودع بعضهم وتتعرف على أكثرهم ... سنلتقي بهم في يوم ما ومكان ما وقد لا نلتقي أبداً .. و الأحسن الا نلتقي بهم لانك عندما تودعهم من جديد ستتألم .

الريح الغربية تدفع ماء البحيرة بأتجاه العدو، تتوضح شبكات الاسلاك الشائكة الغائرة في الماء وفي الطين الآلاف من الالغام .. و ملايين الاسماك .. انني انظر اليها فقط ... ليس لي القدرة على صيدها . ان من يهم بصيدها لا بد أن يُصاد من قبل العدو أو من قبلنا لأنه سيكون مكشوفاً وبلا ستر . أعتقد ان الاسماك مثل الدول الكبيرة تستفيد من الحرب ايضاً..

نظرتُ نحو ماجد البصري الذي انزوى في موضع الرمي وحدق في الأفق البعيد ، عمره تسعة عشر عاماً لا غير وهو فتى أكثر منه شاباً فيه براءة طفل.. كنتُ اعامله في الفصيل على هذا الاساس ...كثيراً ما ابتسم بوجهه..سلاحه قاذفة..

قلت لماذا نحمل دائماً أكثر من طاقتنا؟. هل هو شبل اذاً مثل الاشبال التي سمعت عن قتالهم في بيروت ضد العدو الصهيوني ..

ماجد البصري يتأمل البحيرة .. وطيور النورس المنتشرة .. أتراه في هذه اللحظة يتذكر امه أم حبيبته ..ماجد البصري..فيك يتجلى الخجل البصري .. وابتسامة هي مفتاح اكتشاف المحبة .. هي اول باب من أبواب عشق البصرة وأهلها .. ادركت لماذا سميت البصرة ثغر العراق الباسم . نحن في حلم أو واقع ونسأل عن زوارق مرت من هنا و عن سندباد توارى وراء طموحه نستجلي ذلك الماضي ونتيه في دروب العشق. أ أمل نقلنا نحو باب ((النعيم)) هي هكذا بسمة القلب وسط النار . قال لي احد الجنود ان ماجد احب البحر كثيراً و عندما ينغرس في موضع الرمي يبقى يحدق في البحيرة التي أمامنا الى ان ينتهي دوره..عرفت بعدها أن اباه كان بحاراً

يجوب البحار وكثيراً ماكان يأخذه معه وقد شاهدت له صورة مع والده في سفينة صيد على شواطيء عُمان.

وفي احد صباحات تشرين قبل عشر سنوات ذهب ابوه في رحلة صيد ولم يعد ، كثرت الشائعات عن مصيره ، منها ما يقول ان عاصفة هبت عليهم و أغرقتهم و منهم من يقول انه أسير لدى أحد قراصنة البحر الايرانيين عندما استولى على السفينة وهناك رأي آخر يقول انه في الهند وقد تزوج هندية لأنه كان على علاقة بأمرأة في بومباي، المهم انه لم يرجع من رحلته وقد ترك وراءه ماجد و امه وثلاث بنات ..

هل نساير اهواءنا ورغباتنا أم هو الطموح .. ام هي اللامبالاة ام الرغبة في اكتشاف شيء .. ؟ بدأت أتسائل عندما دارت في رأسي حكاية أبي ماجد وطريقة اختفائه . أخفيتُ حزني وقلت لماجد :

- ستذهب الى البصره اليوم .

ادار وجهه نحوي وقال :

- أن موعد اجازتي لم يأتِ بعد .

- بلا اجازة .

- كيف ؟

- ستذهب في سيارة الحانوت وتبقى ثلاثة أيام وتعود بعدها بالسيارة نفسها .

- شكراً ... كم كنت اتمنى أن اذهب الى البصرة هذا اليوم

- ستذهب لكن بشرط .

- بالله ما هو ؟

- ان تجلب لنا سمكة محشية بالطرشي والطماطة والبهارات .. المهم بالطريقة التي تطهون بها السمك .

- كما تشاء .

- كما يشاء الجنود .. أن هذا أقتراحهم ..

وحين جاءت سيارة الحانوت قفز فيها ماجد وعلامات الرضا و البسمة واضحة عليه

****

في ملجئي الذي فيه أمان العالم و واحة الراحة الهادئة أجلس .. اجيل بنظراتي على ما يشغلني ،مايجعل الوقت ينساب ، مايُبعد التفكير بالحرب ، وينسيني حياة

الملاجئ الترابية ، التقط مجلة بلا غلاف .. متسخة الصفحة الاولى .. اقلب الاوراق و أقرأ العناوين .. أتوقف عند صورة لفتاة .. ملونة .. أتأملها كثيراً.. أبحث عن اسمها كأني أعرفها .. لا أجد .. أغلق المجلة ، اصمت .. أرمي سهامي اليك فتقع في صدري . أقترب منك فتبتعدين كالسراب . أكنت أحب جبلاً أم فاتنة العصور العتيقة ؟ .. احمل ظمأي باتجاه شواطئك فتحرقني نارك .. في البعد يتولد احساس الحنين و الغربة وتكونين طيف الهوى ، جرتني الأيام نحو سواتر الدم .. والمصير نحو الأرق الازلي وضريبة الاوطان بأتجاه الحب الكبير .. أي شيء يأتي بك و اي عمل يبعدك عن بالي .. لا ورد في أرض البعوض والضباب ... أن شقائق النعمان لا تنبت الاّ في الارض التي تطأها اقدامك .. من أتى بك الى قريتي النائية لتعلمي الصغار أبجدية القراءة والكتابة ؟ .. أي اصرار هذا الذي جعلك تقبلين التدريس في ريف بعيد عن المدينة التي نشأت فيها .. اهو التحدي ام رسالة .. أم مصير .. عن البداية أم الورطة .. ام الفراق .. الحلم او أي شيء يمر في حياة المرء ؟ ..كنتُ هائماً في حقول قريتي ((أسديرة)) ..القمح مدىً اخضر يمتد حتى الأفق .. ومتسعمرات الاقحوان تتخلل البقع غير المزروعة بالقمح والشعير .. البيوت الطينية تغرق في بحر الخضرة .. والماشية مضطجعة ..تجتر اكلها بتكاسل .. أسمع أنين الحشرات او غناءها.. لافرق ..ثمة غيوم بيضاء متفرقة ..أشم رائحة الرشاد والفطر .. ارى بضع فتيات يحملن سلال نبات الخباز الذي يكون وجبة الربيع اليومية .. في ذلك الجو الذي لا ينسى كنتُ أقرأ بكتاب ((اللزوميات)) للمعري ..

رأيت جمعا من الاطفال الصغار صبية و بنات ينطّون في حقل القمح .. يتراكضون وراء الفراشات ، عرفت أنها سفرة مدرسية نظمتها المعلمة الجديدة التي جاءت الى

القرية .. دفعني فضولي للذهاب الى الاطفال .. أقتربتُ منهم ، نادوني بصوت مسموع :

- مراد .... مراد .... تعال معنا .

لم اتردد بل كنتُ اتمناها في داخلي .. رغبت أن يناديني الصغار، أقتربت منهم .. سلمت عليهم .. وواصلت سيري نحو المعلمة .

- مساء الخير ..

- مساء النور ..

- انكِ تقدمين خدمة كبيرة لهؤلاء ((قلت ذلك و كأنني اعرفها منذ زمن))

- هذا جزء من واجبي . ثم أني أُرفه عن نفسي .

- القرية جميلة .. اليس كذلك ؟ .

- بل وطيبة لحد هذه اللحظة ...

- ستكون دائماً ..

- أتمنى ذلك .. ستكون هذه الأيام أجمل ذكرياتي رغم ما اعاني من غربة وصعوبة في توفير ما أحتاج .

كان الاطفال يتقاذفون الورد و العشب ويتصارعون على البساط النباتي .. في هذه اللحظة أردت ان لا اكون ثقيلاً ..قلت

- اسمحي لي بالذهاب ... وداعاً

- وداعاً .. لكن ما هو عنوان الكتاب الذي بيدك ؟

- اللزوميات .

- أبهذا الجو تقرأ هذا الكتاب .. ثم ماذا نقول نحن أبناء المدينة ؟ أن عدوى التشاؤم أنتقلت اليكم أبناء القرى !.

- صحيح ما تقولين.. لكني لا أقرأ لنزار .

- لم تفهم قصدي .. فأنا لا أحب شعر نزار .. ليس كل الفتيات تحب شعر نزار رغم مابه من حلاوة وشاعرية كبيرة .

في اللحظة هذه وقفت ولم استطع أن اذهب عن من يناقشني أنها تقف على ارضية ثقافية أذاً

- الا تعتقدين أن الاصالة في التشاؤم ؟

- لا .. أنك تغالط نفسك .. ان التشاؤم جاء نتيجة سوء تصرف القائمين على هذا العالم .

مثل مصعوق ..وقفتُ امامها ، غسلتها بنظراتي .. ابحرت في عينيها ..قلتُ في نفسي ..الاصالة في عينيك..

منذ ذلك الوقت كانت أيمان ملتقاي في قريتي عند عودتي من الجامعة هي شيء جاء ولم يتكرر .. كانت ومضة مضيئة أبعدتني عن وجودية وعبث المعري ، التصقت بقريتي لأنها فيها .. خرجنا الى الحقول معاً .. وركضنا وراء صغار الطير وتجادلنا في الأدب العظيم للعالم وثوراته الاصيلة .. كانت تمتلك قناعات من الصعب التنازل عنها .. انها المرأة الوحيدة التي تمنيتها في حياتي .. وحين عدتُ من الجامعة في مساء أحد الايام الى قريتي ((اسديرة)) سألت عنها ، قالوا انها نقلت الى مدينتها نينوى ولم التق بها .. بعد سنوات سمعت انها رشحت لأنتخابات المجلس الوطني ولم تفز .. لا أعرف لماذا .. وانقطعت أخبارها عني .

كل ما أعرفة أنها رئيسة الاتحاد النسوي في نينوى الآن ، قد لا تعرفني في هذه اللحظة بعد كل السنوات لكنها لن تنسى ((اسديرة)) الجميلة .. هرب الليل بنا و أطلقنا كلمات الهوى الى ما بعد المدى الاخضر ، اسراب من الاحلام تغمرنا في لحظة التلاقي .. كل معايير الحب تراجعت عند ملحمتنا . كنت تحبين الوداع الى لقاء جديد و أنا اودع الزهر المعانق للشفاه .

دع طيور القلب ترحل أو تحط متى تشاء ، فضياتي واسعة و مترامية تحت هذي السماء ، أرضي آمنة فارحل متى شئت أو حط بين ثنايا القلب أيها الحبيب ، دع مسافات الخوف تختصر الى الامان المزدهر ، اشتاق لحلم الفراشات الصغيرة وهمس الريح بين اوراق العشب الندي .. أنا أول العاشقين بلا أسى أو ندى و اكثرهم تيهاً في بحر العيون .. أُرتل آيات الغرام على الوسائد الخالية ، اوزع قلبي على مفترق

الطرق ، أرحل الى أخر حدود العشق .. أذوب بين همس الكلمات و أرتجاف الشفاه الطرية ..

انتِ البداية الحقة ونهاية النهاية .. تزوجي أحلامي فهذا أضعف الايمان .. أذكري رحلة الحقول المكتظة بالورد..أسألي عن آخر احزاني وتيهي .. أعلمي أن أخر نداء للقلب هو أنتِ سأختصر المسافات الى ظلك لتكوني واحة الظلال الوارفة ، مدينة الحنان الهادئة أنت ، وصخب الشوارع الضالة أنفاسك حين تعشقين و تعبرين عن هواك . و انا آلة التردد والجموح وثورة الزمن الناعس ، نادراً مايفارقني الحلم ..فأحلم بك من جديد .. لِمَ كنت توزعين على القلب العواطف لتخنقيه وترحلي قبل المساء الأخير ، قل رحيل النحل المعلق بالزهور .. المطاف البعيد انت ، أي هوى ذلك الذي يأسرني بين أنفاسك وظلك ، في البحيرات البعيدة أحلم باللقاء .. أحسب ساعات الوداع فيكون زمن ثقيل .. من همساتي لك أزداد عشقاً يا ملكة الجمال .. انت آخر القديسات و أول العاشقات .. من كسرتْ حدتي وجبروتي غير أنت يا صلصال القلب . أنت مدى الحقل الاخضر وقمح نينوى الكثير .الفرح الكبيرة اهتزت اوتار قلبي عن طيف هواك أسرتني ذكريات الكلمات الهامسة و ادماني الفراق

تسرقنا الايام عن احبتنا و تبعدنا الاحداث عن ميثاقنا وهوانا آخر الايام أن لا وقت للحب .. أنَّ لا معنى للوجود .. يازمن الملاجىء الثقيل أسرع الخطى نحو نهاية النفق المدَمّى...

قصف معادي مركز لملاجئنا .. أهتزاز في هذه الجحور التي لا تسكنها حتى الثعالب ، غبار ، دخان صعد الى السماء ...

تسقط شظية عند باب ملجأي .. الهول الهول لمن بقي حياً .. يقول الاعداء منذ سنوات الموت للسلام ..الموت للسلام .. يتفاخرون بهذا الشعار .

يفتخرون بكثرة قتلاهم من أبناء ايران .. أرأيتم مثل هذا في بطون التاريخ و أمهات الكتب ؟! ..

أصيح بالجنود أن أدخلوا الملاجىء .. ان العدو يستغل مجيء سيارات الارزاق .

يستمر القصف المعادي ..صاح أحد الجنود من ملجئه ..لن يتوقفوا ألا اذا ردّت عليهم مدفعيتنا ..انها تخيفهم كثيراً .. لحظات و يستجيب رجال المدفعية لقول الجندي .. وتهدر الاصوات ونكون أرض حرام بين المدفعية الثقيلة المتقابلة التي تناطح بعضها بعضاً نصف الساعة ، تنجلي غمامة الموت ويتوقف القصف المعادي .. أخرج نحو الجنود ، كانوا بسلام ولم يتعرض احد لسوء . اوقد خبر الجنود القصف و أحسنو تجنب النيران .

أدخل ملجأ المقاتل مناحي قنيان ..أسم بدوي يوحي بالبيئة التي هو فيها .. ملامح صبي ، وجه صقر جائع ، رجل شوكي من صحراء العراق الغربية ، تلك الصحراء التي اقترنت بالذئاب المفترسة والبدو الاشداء ..الحرب بدأت من الصحراء ..

وحسمت في الصحراء ..مناحي قنيان ، تعابير وجهه القاسية و شاربه الكث يوحيان بالكثير من التجارب ، سلاحه بندقية كلاشنكوف ..قلت في نفسي من روض مناحي وجعله يقف في هذا الساتر افاق انتماء الوطن انتماء العشيرة والبعير .. ثم اذا هو مخير أعنان الصحراء الغربية بمواشيه من له القدرة على ملاحقته ، بل من يستطيع أن يراه ..صحت به :

- مناحي ؟

- نعم ..(قالها بخشونة)

- أين اهلك ؟

- بالغربية .

- أي غربية ؟ أنا لست بدوياً لأعرف الغربية ..

- اذا أنت وصلت الرطبة .. جنوب الرطبة باتجاه السعودية.

- نعم .نعم الآن عرفت .

الصحراء لانهاية من الرمال وبعض أشواك كئيبة تنبت في كنفها الواسع ،انهار من السراب الابيض الذي يخدع المرء لاشيء غير الفراغ الذي سكنه البدوي ، ثمة صدى لاقوام مرت من هنا ..

ان كل الشعوب لكي تتحضر عليها أن تمر بها وليل يهيم تتلألأ نجومة كمصابيح لا شيء يحجبها .. أنها المؤنس للأقوام التي تمر ، بل هي بوصلة الرحلة المتواصلة .. تلال من رمال تنشأ اليوم وتتلاشى غداً ..

خيم سوداء هجعت المساء هنا وجاء الصباح .. واختفت .

انه لاشيء يذكر البدوي بالموت . لاتوجد لهم مقابر جماعية عندما يموت البدوي يدفن ثم يرحل لا محالة وراء الخصب .. انهم منفردون حتى القبور وحيدة في الصحراء ..

لاشيء منفرد بعالمه وكل كائن فيهم مغامر كبير . أن احد البدو قد أنقذ بطل (أرض البشر) لأنطوان ده اوكزوبري .

أننا نحتاج الى من ينقذنا، أن اوكزبري أراد أن نرجع للجذور ، للأصالة ، للصحراء .. وهذا صحيح ،

أدخل مناحي يده في جيبة و أخرجها وقال :

- خذ هذا .

- انه ناب حيوان .

-ناب ذئب شامي .

- كيف حصلت عليه ؟

- هجم الذئب على الغنم فقتلته زوجتي .

- زوجتك ؟

- نعم .

الصحراء . الخشونة . الشجاعة . الصبر . امرأة تقتل الذئب الشامي الشرس ، أنها تدافع عن بيتها ، عن مواشيها ،، أن أباه رجل كبير السن و أبناؤه صغار و لهذا قامت زوجته بما يقوم به أشجع الرجال .

تأملت ناب الذئب ،قلت في نفسي كم من اللحم مزق هذا الناب ؟ كم من الارواح أزهق .. كان اللؤلؤ ناصع البياض املس .

- ما فائدتة ؟

- انه يطرد الارواح الخبيثه ويجعلك صلب القلب قوي في اشد المواقف خطورة .

- شكراً

وضعته في جيبي ، لا تيمناً به بل كذكرى و كمجاملة لمناحي ، ان زوجة مناحي جعلتني أغير نظرتي عن المرأة البدوية التي رسمتها في خيالي ، تصرفاتهن عند عيادات الاطباء وتجولهن في شارع نينوى ..تؤكد لي أن هؤلاء لسن بدويات بل من مزارعات المدن التي تحيط أكواخهن بنينوى . قلت أن امرأة مثل زوجة مناحي لا تمرض .. لا يستطيع المرض أن يقترب منها .

يبدو أن العدو قد اكتشفنا في الملجأ .. بدأت تتساقط قربنا رصاصات رشاشة . أحداهن وقعت باردة بين أقدام مناحي .. أبتسم ولم يعر للأمر أية اهمية .. أن موضع رشاشات العدو مخفية بشكل جيد على شاطيء البحيرة الثاني . أكثر من

مرة دمرت بواسطة ((s.p.j.9)) المضادة للدبابات و الابنية ، انهم يتعمدون الرمي نهاراً ويقللون الرمي ليلاً لان الوميض سيكشفهم فيكونو عرضه لصوارية حسن عناد صاحب ال ((s.p.j.9)) الذي يجيد التهديف والاصابة .. في معارك بنجوين التي استمرت ثلاثة أسابيع ..قالوا أن مناحي بقي يقاتل لمدة أسبوع في أعلى قمة الجبل ، كان معه في الربية أحد الفرسان اسمه كاكه رشيد .. لم ينسحب مناحي رغم شده القصف وتراجع الجنود و أستشهاد آمر الفصيل ..بقي هناك يقاتل مع كاكه رشيد محاصرين ، وبعد اسبوع استعادت القوات العراقية الجبل و أستطاعت أن تطرد العدو . . وقد وجدوا كاكه رشيد مجروحاً بساقه ومناحي لم يصب بشيء ..حب الارض فطرة وتأتي من اللاوعي ، والشجاعة فطرة تولد مع الانسان ، وكذلك المواقف المبدئية ..أن مناحي وكاكه رشيد أميان لم يقرءا اي كتاب في حياتهما ولم يتثقفا بحب الوطن . فهو حب لا يأتي عن طريق القراءة .

الانتماء والشعور ، بل الغيرة والمسؤولية البسيطة هي التي جعلتهما يقاتلان لمدة اسبوع بأعلى قمة الجبل .. تملكني هذا الشعور وهذه القناعة و انا أتذكر صديقي الجامعي أحمد سليمان الذي هاجر الى الخارج بعد أنتهاء دراسته الجامعية . عذره في ذلك انه يختلف فكراً و أيديولوجياً عن فكر السلطة والحزب الذي يقودها ..كان يحلم بالحرية و الآمال الكبيرة ..بعد سنون من هجرته جاءتني رسالة منه ..قال لي فيها انه نادم ..بل محتقر في الخارج ، أنهم في هذه البلاد يعدّونه خائناً و جباناً وألاّ لماذا لا يشارك في الدفاع عن وطنه.

قلت لمناحي فجأة

- اتعرف كاكه رشيد ؟.

- كاكه رشيد أخي يوم قل الاخوة .

- أين هو الآن ؟ .

- أستشهد في معارك (سديكان) .

- أذهبت الى أهله ؟

- نعم ذهبت .. وقد وجدت أبناءً ثلاثة و زوجته و أبنته .أنك لا تعرف كم هو شجاع كاكه رشيد ، حرام يأخذه الموت ، حين سمعت باستشهاده لم أذق الطعام ثلاثة أيام .

انه مقاتل شرس ..لقد فقدتُ انساناً قاتل بصمت وأستشهد بصمت ، لم يقيمه احد ولم يعرف عنه أحد ، كل ما هنالك أن كاكه رشيد قد أستشهد ..لا احد يعرف تاريخه الحربي غيري .. أن له مكانة كبيرة في قلبي ..تصور ..أن ابني الصغير أسمه رشيد .

تغير وجه مناحي ، لاحظتُ أن عينيه أغرورقتا بالدمع .. الحرب تخلق صداقات تتجاوز بمحبتها حب الاخوة و الاهل .. من أين اتى هذا الحب لمناحي تجاه كاكه رشيد ؟ . أنه الموقف والاخلاص والمصير الواحد ، ندفع العمر دفعا نحو حافته ،نحبث عن بقعة صالحة للموت في أعالي القمم كنا أعلاماً وفي الوديان سراجاً يوقظ العالم من سكرة الصمت .. في ظلمة الليالي لا نطلب من الريح السكون .. كنا طائر الفينق .. أو هياكل ثلج في قمم حصاروست .

ادخل يدي في جيبي ، تقع على ناب ذئب كان يعوي في صحراء العراق ويئن ..لا يقتل الذئب الا الذئب ..اداعبه بأصابعي ، رمال الغربية ولياليها الباردة تؤرق صاحب الناب .. أكان فريسة الجوع الذي دفعه نحو موته أم غرور جعله يأتي الى المرأة التي سلبت أيامه بأمر أختزلت خوفها من الفراش وعبأت شجاعتها في البندقية

****

من موضع الرشاشة المتوسطة رن جرس التلفون .. رفع السماعة المخابر كريم . أعطاني التلفون قائلا:

- الآمر يطلبك ...

التقطت السماعة .. و تهادى كلام الآمر متقطعاً في أذني ..

قال لي :

- أنت لاحظت عمل الهندسة العسكرية ، فقد فتحت لكم ثغرة في الماء لتكون لكم طريقاً عند خروج الكمين .. وستكون أنت آمر الكمين و تأخذ معك جنديين و سأكون على اتصال بكم عن طريق التلفون الذي ستأخذونه معكم ..

مقدم هذال أسم يوحي بالصراحة والحزم .. رجل أبيض البشرة أشقر الشارب تبدو عليه بعض علائم التعب ، فقد كان من اوائل الضباط الذين أنيطت بهم قيادة

المقاتلين في الحرب ..في معارك الشمال ضد الجيب العميل كان ملازم أول و يقود سرية مغاوير في منطقة سيد صادق في السليمانية ، أما في هذه الحرب فقد كانت قواته من بين القوات التي دخلت المحمرة ، عبر نهر الكارون وشهد معارك شرق البصرة الاولى .. وميسان .. وبنجوين .. انه يمتلك خبرة طويلة ، وهادىء لا يهتز توازنه مهما صعبت الظروف .. مدة قصيرة من الوقت ويأتي رجال الهندسة العسكرية .. يبدأ عملهم المتقن الدقيق . أنهم الرجال الذين لا يخطأون مرتين .. في ظلمة الليل عملهم وفي زورق مطاطي يقتحمون الاسلاك الشائكة.. ويطهرون الثغرة من الالغام الكبيرة .. يمر وقت ليس بالكثير ، يعود رجال الهندسة العسكرية الى الشاطيء ، ويتركون لنا الزورق لنقوم نحن بعملنا ،، في الزورق الذي سينقلنا الى مسافة مئتي متر في البحيرة كنا ثلاثة : أنا ومحمود سعيد وعلي جاسم . الاثنان جنود أحتياط و أنا مجند . اندفع الزورق بهدوء وريبة نحو مكانه يدفعه عمود خشبي يثبت بالارض من نهاية الزورق ، وبالفعل ورد الفعل يتقدم الزورق . نقف في مكاننا المحدد .. ويركن الزورق بأحد أعمدة الاسلاك الشائكة .. نحدق فيما حولنا .. أسلاك شائكة تتخللها المئات ، بل الآلاف من المفرقعات اللغمية .. أصوات ازيز رشاشات العدو يعبرنا بأتجاه قطعاتنا بين لحظة و اخرى يتأجج تنوير معادٍ فوقنا ، نركن الى الجمود ،و الاّ أصبحنا عدماً.. حديثنا همس فيما بيننا ،، نحدق في ظلمة الماء باتجاه العدو .. نصغي بآذاننا لنسترق السمع ، لعلنا نظفر بشيء .. بمعلومة عن العدو ..نسمع صوت محركات .. وراء الساتر المعادي ..أنها أرزاقهم و ما يحتاجون ..حين ينقطع الرمي تسمع أصوات ارتطام المويجات الصغيرة بالزورق..برد ..أم خوف يتوغل في الاجساد ..أحساس بتفاهة العالم و بساطة المهمات ..

تزعزع في قناعات كانت لا تفارقنا يوم كنا نحسب الدنيا مجرد حلم جميل .. زورق من مطاط يتوسط ناراً و يسبح في جحيم .. اكتسى هذا الزورق برحى العالم ولم يعد مخصصاً للصيد و النزهة .. صار وسيلة من وسائل الدمار .. أن الانسان يخلق مقومات الموت بيده .. محمود سعيد يشتعل قلبه لاجل سيكارة و لكن لا وقت لها ، أراه يقرفص في قاع الزورق الهزاز .. ثم يرنو باتجاه الشاطىء المعادي و يهمس من شرقنا يأتي الخراب .. ومن صحراء لوط تأتي الخرافة والشعوذة ..

صمت ماقبل العاصفة .. أو بعدها .. خيم على المكان هدوء حذر او تعب أجتاح اليد التي تضغط على الزناد .. كلما أحدق في البحيرة جنوباً .. أرى شعاعاً ضوئياً ينتشر في السماء .. أنها جبهة الفرقة السابعة التي لا تهدأ نارها ألا نادراً..

الليالي الهادئة او ربما هي استراحة .. مؤقتة .. يتوقف كل شيء ألا موجات البحيرة و اهتزاز الزورق..

أحدق في مدى الرقية في قاع البحيرة المظلم .. أسند ظهري على مقدمة الزورق .. و أصمت .

هيفاء .. بتول .. ايفون .. أجساد مرمية ..و أرواح شاردة.. تمادى الزورق الجميل في بحيرة الثرثار .. الموج المتلاطم يحطم الرمال .. أرى حلم السنين الضائعة .. يدفع الزورق في الثرثار ..ألقي بأيفون بنت بيروت في الماء .. يطفو الجسد الحنطي في زرقة ، أنتشلها من عبثها ..تقهقه الباقيات و الزورق يجوب البحيرة ..أغرف الماء ، القيه على وجه بتول الأسمر الخجول ، أقفز في البحيرة ، تمتد الايادي الجميلة و

أصعد .. تضغط هيفاء على زر المسجل الذي بيدها ، يصدح صوت وديع الصافي ..

عندك .. بحرية ،، يا ريس،، تردد الحناجر الناعمة مع الاغنية يندفع الزورق في الثرثار بعيداً .. تبتعد عن الشاطىء الغاص بالطلبة ..

قالت ايفون .. كأننا في شواطىء بيروت. قلت كأننا في حلم .. أشرقت في وجهي صفحة الماء و أغمضت الجفون ..

و اضطجعت في قاع الزورق .. و رفعتني ايفون من أقدامي ، قذفتني في الماء ، سحبتها معي وغدونا سمكتين .. ابتعد الزورق عنا ،، التصقت بها ،، جسد حار في ماء بارد ،، يتراقص جسدها بفعل الموج .. خفيفة تبدو كريشة ، أغطس في الماء و أفاجؤها من خلفها .. تغطس وتبتعتد .. ألحقها .. يعود الزورق و تصعد ..

أسمع المسدل يصدح : هذه ليلتي و حلم حياتي .. بين ماضٍ من الزمان وآتِ

تهادى بنا الزورق باتجاه جموع الطلبة .. لحظة ونكون في الشاطىء و نودع الزورق لمجموعة أخرى من الطلبة .. نضطجع على الرمل ..

يرن جرس التلفون فجأة..

- كمين . ؟

- نعم .. من ؟

- مقدم هذال

- نعم سيدي

- الله يساعدكم ملازم مراد .. هل تلاحظون شيئاً ؟

- لا شيء جديد .. بل انهم قد قللوا الرمي ..

- لا تكثروا الحركة و لاحظوا جبهة العدو ، قد تخرج دورية معادية .. أنتبهوا جيداً

- أمرك سيدي.

أجلنا نظرنا في البحيرة ، لا أحد سوانا في هذا الليل الكثير النجوم .. علي جاسم يحتضن بندقيته و يتكيء على كوعه الايسر ..صامت لا ينبس بكلمة . انه من مدينة الناصرية .. كان يحب الغجر . و في كل إجازة يذهب الى مضاربهم و يحضر حفلات رقصهم و طربهم .. قالوا انه تعلق بالراقصة وحيدة و كانت تجلس الى جانبه بين كل وصلة رقص و أخرى وقد أهداها الكثير من ملابس الرقص . لقد أغاض هذا التصرف زوجها القصير القامة وحدا به الى الهجرة بها الى مكان مجهول . هذا التصرف أغضب علي و لم يذهب بعدها الى رقصات الغجر ..مرة ذهب الى أحدى حفلاتهم ولم يجد وحيدة وغضب و ثارت ثائرته ، أطفأ المصابيح و أفشل حفلهم و رجع دون أن يتفوه بكلام. أتراه في هذا المكان يفكر بوحيدة ؟ ..

قد ابتعدنا عن زمن البراءة و جرفتنا رياح الدم النازف . هذا يوم أتقاد الهواء في احشائنا ،، عيون الصمت لا تأبي التخلي عن عشقها.. نحن المسافات التي لا توصل .. ونهاية العصر الرهيبة و الجلاد .

لا مراسٍ على الشطآن تستقبل سفننا .. ولا ورد في الاحضان .. كل ما هنالك طين معجون بدماء .. و أسلاك حديد تشمر عن أسنانها ، أرى عاشقات بلا رجال .. و انا يؤرقني هوى النساء المكافح في افق الحرب.. من باب همنا الكبير اعلنا رسالتنا .. و من عويل أمٍّ أعطت أبنها شهيداً جاء اصرارنا.. يتلاشى الليل .. عند مطلع الفجر .. وتحمر السماء شفقاً وحزناً أم فرحاً و يختفي صفاء النجوم .. يزداد مدى الرؤية .. ينساب الزورق نحو شاطيء البحيرة ، لقد جاء الفجر فالبقاء خطر .. سريعاً ما نصل الشاطيء ، ندخل الملاجيء .. و أبدأ بكتابة برقية الى الفوج عن عودة الكمين سالماً و بلا خسائر .. لم ألاحظ اي شيء يثير التساؤل والغرابة .. كانت بداية موفقة . نظرت الى التقويم الصغير في ملجأي ، كان اليوم الثاني عشر من آذار

ابتسمت : بعد يومين سأذهب مجازاً....

****

الندى اجراس لؤلؤ على العشب.. و المدى أزرق.. ومكحول يجثم غرباً أسودا داكناً لا شجر يغطيه .. أسميه الجبل الحزين .. قرية أسديرة مفروشة في جوف حقول القمح الواسعة ، أهيم في أجوائها و دروبها .. الزمن يضع بصماته على بيوت الطين خدشاً .. جرفان السيول يترك أخاديد على أسقف و جدران البيوت تنغرس بين السقف و الجدران .. أعشاش العصافير و الفئران و في داخلي البيوت و على أعمدة السقوف المعوجة ..

يعشعش الخفاش الذي يأتي موسمياً .. أبقار تجوب الازقة بعبث .. ودجاج ينثر المزابل بفوضى . قطعان من الاغنام الهائمة في صمتها موجهة نحو البراري المحيطة .. أرى أسماعيل العبد الله .. صديق الطفولة .. مقوس الظهر .. يمتطي حماره وينعت غنمه .. كنا في الصف الاول الابتدائي و على كرسي واحد .. أصابه تخلف عقلي ولم يعد قادراً على مواصلة الدراسة .. فواصل رعي اغنامه .

اقتربت منه وقلت : أتعرفني ؟

لم يجبني بل لكز حماره و اندفع يسبق الوقت الى عمله ، سرتُ في أزقة طوقتها رائحة الرطوبة و مستعمرات الفطر الكبيرة . شخصت أمامي غرفة طينية تأخذ شكل صومعة أو قلعة موغلة في القدم .. وقفت أمامها .. نبات الخباز يتسلق الجدار البالي .. كان سقفها ساقطاً من جهة الغرب ستندثر لا محالة .. لا أحد فيها غير انين بعوض وبركة ماء صدئة أنها صومعة امرأة هجرها أبناؤها بسبب الجنون . كنتُ أمر قربها في طفولتي و أسمع كلامها غير المترابط .. من أسمالها البالية كان القمل يغزو الارض ، شاهدت الاطفال يرمونها بالحجارة ، وهم يطلقون الاهازيج التي تسخر منها .

كانت تطردهم و تقول : يا اولاد الزنا ..

أذكر أنني رأيتها تأكل الزرع مرة .. أمن الجوع ...ام من اللاوعي ؟ جعلها لا تعرف للطعام مذاقا و لا تفرق فيه .. اختفت فجأة و لم يعثروا عليها الا وهي جثة متآكلة في أحد الحقول .. سحبتني خطاي نحو مكان من صباي أو حلمي الوردي ، وقفت عند الشجرة التي تقع الى الغرب من القرية يسمونها هناك (شوكة البحر)

شجرة كبيرة ملتوية الاغصان كثيرة الجذوع قصيرة الاوراق شوكية فيها أسنان كالابر تقع على مفترق الطرق التي تدخل القرية متفرعة في الدروب .. سريعاً ما تنمو هذه الشجرة . أذكر أن أهل (اسديرة) قاموا بقصها لانها قطعت الطريق و لم يعودا قادرين على السير .. لكنها سريعاً ما تنمو .

هي شجرتي .. في الصغر أختبيء فيها لاصطاد صغار العصافير ، تخدشني أسنانها ، و أجلب من جذعها حبات الصمغ وأصنع منها الصمغ ، أستعمله لدفاتري وكتبي المدرسية ، على سيقانها الكثيرة بصمات مني . مرّ من جانبي ذلك الشيخ الذي كان يتضايق مني كثيراً عندما يراني فيها .. كان يحمل أبريقه و يتغوط داخلها فيغضبه أن كنتُ معلقا على أحد أغصانها ، لم ينبس بكلمة واحدة معي بل تحاشاني بعد أن غسلتني نظراته من العيون الغائرة الضعيفة .. و اندفع في داخلها كعادته اليومية .. أكلت منه الايام قوته و لاحظتُ ان ظهره أزداد تقوساً وسيره أكثر اضطراباً كان في شبابه من أمهر العازفين على (المطبك) وله صولات مشهودة في الطرب و الحفلات و الاعراس ، كان يجوب القرى .. ليل نهار .. وبيده (مطبكه) يبحث عن فرح أو عرس ليعزف لهم حتى قيل انه من تجواله الدائم يقوم بحلق ذقنه ماشياً حتى لا يفوته الوقت وقد ورث ابنه العزف منه . أختفى في الشجرة التي كانت تفتح له صدرها يومياً دون كلل.

كل المعالم تتآكل و تتلاشى ولكن الانسان أسرعها . و أكثرها ضعفاً .. في داخلي ماذا بقى غير كلمات و هواجس و اضغاث ذكرى لأيام تلاشت محسوبة علينا ، حتى الجمال تآكل ويصبح كومة من تجاعيد حزن . قلت ذلك حين رأيت

مريم وقد ترهلت وهي تنعت اطفالها و لونها شاحب . لقد كانت أجمل فتاة في قرى مكحول ، وقد تغزل فيها كل الشعراء في المنطقة وكاد أن ينشب قتال بين أقربائها و احد الذين تقدموا لخطبتها .. أنها مثل غزال صحراوي ، لم تعرفني . أو هكذا تصرفت و هي تسحب وراءها ثلاثة أطفال و بحضنها الرابع . لقد تزوجت بالإكراه من أبن عمها الذي كان متزوجاً وله خمسة أبناء .. رمقتها وهي تندفع صامتة في الدرب محطمة أو غير راضية لا أعرف ، كل ما أعرف ان ذلك الجمال جلب لها اللعنة والنكد .. اختفت وهي تدخل احد البيوت متباطئة الخطى .. آذار شهر ربيع يطلق خضرة نحو أفق اللانهاية .. دافيء مشمس حتى النشوة و انا أوزع قلبي في الازقة بين بيوت الطين الرطبة و على غبار الرفوف اودع اطيافاً وهمسات الصغر في الزوايا المعتمة .. أختبأت من تأوه الكلاب في ليالي الشتاء . طاردتني الهواجس . ووجهة القلب نحو أول الغرس ، أول مولد .

من الكآبة يخلق الفرح .. لا شيء يبقى الواقع على حاله .. أن آلامي بحجم حبي .. أغمر قلبي بحنان القرويات ، تلك الطيبة العامرة بالوفاء .. أي شيء أعظم من الجمال الطبيعي .. ثلاث فاتنات بأثواب استجابت للربيع .. مثل فراشات تحلق فوق زهر يرسلن خطوتهن باتجاه الحقول .. أفتح شهية الحب ، و أحدق في جمال النساء .. يتلوى قلبي الذي كاد أن يموت نكداً .. قالت امرأة لي مرة .. أنك صاحب المئة قلب .. قلت هذا شأني مع كل الجميلات .. مع كل من أعطاها الله شيئاً منه .. لِمَ لا أمتلك هذه النعم و هذا البهاء ؟ .. تائه في الطرق .. سائح في عالم الهوى الاصيل .. حنين الاهل يحفر الجوى فتسقط المواقف عند حد العشق ، من جراحي تنبت زهرات هي كل ما أعطي لعالم الطفولة .. لمن تركني في العراء

انتقاماً لأني عاشق أزلي .. ألف سلام لمن أعطتني عهداً بالوفاء وتزوجت جبراً عسل القلب .

كثيرا ما يخدع الزمن ، القرى البعيدة تهجع ساكنة .. لا حراك لقاع المحيط ألاّ بزلزال ... مرق طائر أبيض هارب من جحيم الحرب .. هول النفاق .. ليغيب وراء السحاب أو سراب العين .

أشم رائحة الاهل تنبعث من طين البيوت .. وسنابل القمح هي آخر الخير هنا . لم تكل أقدامي عن لعق تراب الدروب و عيوني عن مسح البيوت والناس .. نحن في عطش دائم الى الذكريات .. كان الصحبُ كثر وصاروا قلة بل تناثروا و غادروا أعشاش هذه القرية .. مثل غربة تجتاحني حين أغسل الوجوه ، اين انتم في زحمة المتغيرات ؟ .

كلنا يتبع هواه أو مدفوع الى ما لا يرغب .. من منا لا يحب مسقط الرأس ويتمنى البقاء فيه ؟ .لكن لماذا الرحيل ؟.. وانا لقد نزفت من دم الطفولة مايكفي حتى نهايات الرحيل ، كم أرقتني متقلبات الهوى و أشواق البقاء .. سأمكث في قالب محار لأني اللؤلؤ المفقود الذي غمرته رمال الشواطىء الدافئة ..(اسديرة) بيوت متداعية من طين وحنين لا يضاهي الى الشمس ، وهجها ذهب وخيوطها حرير .. أقف عند بناء كونكريتي مطلي بالاخضر الفاتح .. أنها مدرسة (اسديرة) تأسست في العالم الاخير للملكية .. قالوا ان الملكية جاءت بالمدرسة لأن أهل

القرية رفضوا أن يدخلوا أبناءهم الخدمة العسكرية .. الاّ عندما تبني لهم الحكومة مدرسة .

شبح المدير محجوب يطاردني .. هيكل كبير به بعض الترهل .. لا أذكر انه ابتسم يوماً . تنغرس في يده عصا التأديب .. حين يدخل المدرسة تسمع صوت الابرة عند سقوطها كعرين لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه بأستثناء الفراش الذي يحمل له صينية الشاي . أجثم على المقعد كصخرة .. وحين ينتهي الدوام أنطلق الى البيت . و في الطريق أخلع بنطلوني وأستمتع باتساع دشداشتي التي أعبها داخل البنطلون صباحا لأذهب للمدرسة حيث لا قميص بل اني لا أعرف القميص في كل مراحل الابتدائية . البرد يجتاح الصفوف العالية من الشبابيك الصدئة و تتجمد اصابع قدمي .. أحس ان حذاء المطاط يزداد ضيقاً .. يأتي المعلم ريمون ، مسيحي من قرقوش ..يحب الرياضة كثيراً.. يسحرنا بحركاته وكلامه ، كنت أقف مذهولاً قرب شباك غرفته الطينية حين أسمعه يقرأ بلغة لا أعرفها من كتاب عتيق .. عرفتُ بعدها انه يقرأ الانجيل باللاتينية .. تجتاحني فوضى التلاميذ وهي مندفعة نحو الخارج .. أكاد أن أفقد توازني ، فالموجة البشرية تغمرني أصبح بينهم ..طفل صغير .. أشاهد كثيراً من الفتيات ، بل نصف العدد او اكثر ، ينط التلاميذ مسرعين نحو بيوتهم ..لحظة وتخرج المعلمة رمزية .. وجه يوحي بهم كبير .. ترتدي ملابس سوداء ..اقتربت مني ، قالت :

- مرحباً مراد .

- اهلاً

- كيف حال الجبهة . ألا تنتهي هذه المحرقة ؟

- تريد أن تأخذ المزيد من احبابنا .

- لازال الوقت مبكراً .. عندي حديث معك قد يطول فلنرجع الى الادارة و نتحدث فيه .

- كما تشائين .

اجتاحتني أنهار الأسى .. ورغبتي في الانتقام لكل امرأة جعلتها الحرب تلبس السواد . أي لعنة ، أي قدر يقتل الفرح لتحل الكآبة محلة .. من جعلني خزان تأسي وصديق من هم موتى ؟ .. ان رحيلهم يجعلني مثل شجرة وحيدة .. كاظم .

أي يوم ذلك الذي أنبأوني فيه عن أستشهادك .. كان الغبار هو المسيطر على أيام الصيف وحين وصلت القرية نزلت من السيارة .. وقف أمامي ذلك المعتوه الذي سألته عن أحوال القرية ..قال: لاشيء سوى الحدث الكبير . قلت ماذا ؟ قال أستشهد كاظم عندما أحترقت به الطائرة .

أفقتُ من صعقة الحدث .. أي يوم كان ذلك اليوم ؟.. هل نختار نهايات موتنا بأيدينا ؟ هل تكون لنا القدرة على اكتشاف طريقة اجلنا ؟ في عنان السماء ، كانت طائرة (السيخوي ٢٢) انفجرت فجأة وأصبحت ركاماً . اختفت واختفت أحلامك بالمجد .. لم تحترق طائرتك بنار الاعداء ..بل بالخلل الفني .. على اطراف

الغيوم العالية نوزع دمنا وحلمنا .في أي مملكة يكون الموت نزهة و اكتشاف .اننا في عالم المصادفة القاتلة انك تشنق رغبتي وتمحو بسمتي ..أي سمر ذلك الذي يكون بعدك .. في الليالي المقمرة أتأبطك و تتأبطني نحو أسرة الفاتنات وبساتين الرمان — كاظم — لا مغامرة بدونك بعد اليوم ..اختفت رغبات النفس .. وبدا موتا .. من يجلس معي على النهر يرمق اللواتي يجلبن الماء ؟! من يعبر دجلة معي بتاجاه مكحول ؟ لا أحد قادر على مصاحبتي غيرك و انت العدم او الخلود .. و انا الاضطراب والشلل . لقد كلّت أقدامنا من ركضنا باتجاه الرغبة والجديد .. أنك سندباد القى النائمة كنا نحلم بالرحيل ونحن راحلون ، و نصعد سلم المآسي الطويل بفرحٍ طاغٍ .

– مراد .

– نعم .

–قال لي المرحوم أنك من أعزّ أصدقائه ..

–هذا صحيح .

– أريد منك طلباً .

– قولي و اطلبي أخت رمزية .

– اريد التاريخ السري لكاظم .

– التاريخ السري ؟ ماذا تقصدين ؟

– أقصد رغباته ، طفولته ، أحلامه ، أين كان يقضي أيامه ، صوره ، مذكراته .. من عاشر من النساء قبلي ؟ ، هل كان يحب امرأة غيري ؟ .. أعداؤه .. اتجاهاته السياسية ، كيف أختار الطيران مهنته ؟ كل شيء .. كل شيء ..

أغرورقت عيناها بدمع جاء من حرقة قلبها .. أسبلت الجفون وسال على خدها دمعها منهمراً وتلقفته بمنديلها ..

– لماذا كل هذا ؟.

– من احل أبنتي دنيا .. أن عمرها ثلاث سنوات وعليها أن تعرف كل شيء عن أبيها ..

– عندما تكبر .. ستعرف كل شيء عن طريقي .

– قد لا نلتقي بعد الآن .. أرجوك حدثني عن كل شيء يخص المرحوم .

– كل أسراره عندي .. ولن أحدث بها أبداً .

– حتى انا ؟.

– حتى أنتِ .

– الى متى ستظل أسراره محفوظة في قلبك ؟

– الى أن تكبر أبنته دنيا و سأحدثها عن أبيها .. أنه سر والسر أذا تجاوز الاثنين لم يعد سراً

– أنني زوجته ومن حقي ان اعرف كل شيء عنه .

- لكني صديق طفولته وشبابه فمن واجبي ان احفظ أسراره .

- من يضمن أن تبقى سالماً و الحرب لم تنته بعد .

- الذين أستشهدوا ليسوا أسوأ مني و لا انا أحسن منهم .

- أنك تكابر .

- أنها الحقيقة لا يعرفها ألاّ من أحترق بنار ضياعها .

- سأقدم طلب نقل الى مدينتي كركوك فلم يعد لي مبرر أن أبقى هنا .

- هذا شأنك .. أكتبي عنواني عندك أذ قد تحتاجينه ، فأنا بخدمتك .

- شكراً .. لكني غير راضية على اصرارك هذا .

- أنه موقف لا يمكن أن أتنازل عنه .. ثقي أن أسرار المرحوم اعزّ شيء عندي .

حين كتبت عنواني عندها على مضض ..نهضت من مقعدي .. صافحتها مودعاً لأسبق الوقت و أستمتع بالأيام الباقية من اجازتي .

****

غيوم بيضاء تزداد شفافية عندما يخترقها ضوء القمر . نجوم قليلة أو هكذا هي دائماً في الليالي المقمرة .. يُزرع الخندق بالمقاتلين الذين تعودوا النظر باتجاه الشرق المخيف الغادر ..عبر بحيرة ضحلة المياه .. ثمة نسيم هادىء يوحي بفصل الربيع وجمال ليل آذار . لكن لا ورد ولا عشب يغطي الارض .. مجرد طيات كثيفة من ملح كئيب المنظر . لا ربيع وسط الملح والدم .. كل ما هنالك موت بالتكرار وقصف لا يهدأ .. اليوم الحادي والعشرون من بداية السنة الفارسية الجديدة ..أي شيء ستقدم بلاد الطاووس للعالم برأس سنتها ؟..

زهور ..أم سلاماً ينهي حربا طويلة بداؤها .. أم ماذا ؟ ..كل شيء حذر و متأهب في الخنادق بعد أن أخبرتنا مراصد الاستخبارت بنية العدو في الهجوم .

تقترب الساعة من العاشرة ليلاً .. ويزداد تحذير رجال الاستخبارات من تقرب العدو ووصوله الى شاطىء البحيرة الثاني استعدادا للهجوم .. مطر من القذائف المتنوعة أنهمر علينا لقد بدأ الغزو الجديد .. ويبدأ الرد .. وتشتعل السماء بالنيران والقذائف التي تشبه النيازك .. يصبح الخدق مأوى ضد الشظايا التي تتطاير بالمئات .. الرشاشات والرباعيات تتقاطع سهامها النارية فوق البحيرة .. نحو الجنود ..

يتصل قائد الفرقة بالفصائل والسرايا الأمامية ويشد على أيديهم مشجعا .. تزداد هجمة الاعداء شراسة .. ونسمع لغوهم و هراءهم .. وتجعل مدفعيتنا من الشاطىء المعادي ناراً ملتهبة .. الليل لباس الحرب . وغطاء اختفى تحته العدو ليندفع مباغتاً ويستمر الليل ماضياً .. ويستمر الهجوم معه .. مرة يكون ضارياً .. ومرة يقتل .. الى أن انبلج الفجر وتوضحت معالم الكون ، كان كل شيء قدم خمد وانطفأ

..لقد خسر العدو في هذا التعرض الكثير من جنوده .. أما نحن فقد أصابنا كذلك ضرر لكنه لم يكن بمستوى خسائر الذي يهجم لأننا كنا محصنين في مواضعنا .

لقد فقد فصيلي في هذا التعرض الواسع جريحين .. زيدان مجروح في صدره ويده اليمنى نتيجة شظايا .. وكريم بساقه الأيسر و أظن ان عظم الساق قد كسر . أما ماجد البصري فقد أستشهد بعد أن اخترقت صدره شظية هاون ثقيل .. وقعت قنبلة امام موضع الرشاشة الذي كان يمشط بها سطح البحيرة.

أجلتُ نظراتي في موضع رشاشة ماجد البصري : بركة دم متجمدة ، عشرات من الظروف الفارغة لطلقات رشاشة .. تركت منصوبة باتجاه العدو بعد أن سقط صاحبها .. أبدأ بتوزيع العتاد على الجنود .. وأحصي مقدار صرفيات العتاد .. و أدخل في موضعي الذي هزته القنابل المتساقطة ..

أضطجع على سريري منهكاً من ليل مرّ كالقرن محترقاً بنار هي الجحيم الاراضي . مثل شيء متصلب كان جسدي على الفراش ...

الهواجس تأتي من الحلم ، بل هي حلم الحذر .يسكنني .هاجس انتهاء الحرب ، بداية لعهد التفاهم . ماذا في حلمي غير هذا .. ؟ وبأي شيء يمكن أن أشغل افكاري .. هل انا عائد الى ظلال النخيل ، وبساط عشب البراري الامنة ؟ ام اني انساق نحو جحيم المصير ، كل ما فيّ مجموعة تناقضات ، الاولى ضدي و الاخرى معي ، و أنا لست بمخير الانتقاء .. أناخت الحوادث عليّ وصارت حلفاً بغيضاً ، وأنا الوح بيد التساهل و الحنين لسرب الجراد الذي داسني والتهم أشيائي .. كل الطوائف الارض ضيقة التفكير بليدة ألاّ طوائف أفكاري ، فهمي محتوى الكون ؟ .

على أطلالي .. أُرخ ماضي الصفاء ، يخفق أسىً .. وأنا أفاجأ بالجديد .. كلنا محكوم بشقاء النهاية .. أي عين تقر الآن وأي فم يبتسم .. هنالك أرمي تأملاتي و أودع طيف الأحبة . جعلتني تساؤلاتي مثاراً للبلاهة . أشتاق لحنين الاطفال وصفاء القلوب .. يا هذا الارق لا تفارقني .. يا هذا الاضطراب تكاثف .. يا قلبي اطحن عواطفي المتصلبة .. يا سلام الأهل كن متتالياً أبحث عن بقاع الارض الندية فيحرقني اللهيب .. أي صلاة يمكن أن تستجاب و أي نفاق يتأتى .. كانت اني خزان ألم ومنبع دمع فجر مأساتي ؟ .. أقسم بأصنام العالم المتحركة الناطقة بالخوف والخراب و بآلة الطعن من الخلف وبجبروت الباطل لأن الحق كسيح و قزم ومحتقر الآن هل تعود المياه الى مجاريها ؟ ...

وتجثم الرمال على الشواطىء من جديد .. ان النوارس لا تحط على النار اطلاقاً .. لكن النار تطاردها دوماً.

جرحت شمسنا في كهف الظلمة الكثيفة ، ركبنا الخطب مرغمين .. أو مدفوعين بلا معنى ، فقدنا أسرار قوتنا بين لغو الكلام . اندفعنا الى المحرقة حفاة ، الا من و الخوف الذي غطانا و ابتسم لولائمه الغنية ..تفقدنا صوابنا بين وقع الخطى المضطربة وهدير القذائف المنهمر .. عادية لحظة النهاية مثلما هي محزنة ؟ .

وزعنا دم الأحباب فوق الملح و اخفينا التناقض في يوم الرحيل .. كانت اللحظة اكتشافاً للتردد الموغل في أعماقنا .. سرنا الى النهاية كالخيول الى الحقول .. الحرب هاجس المجانين وقبلتهم .. أسراب الحمام احترقت حين حطت على صفحة الماء المخادع .. تخترق الطائرات مدى التأمل ، تمطرنا بالموت الجماعي و الفردي ،

نسعى الى فسحة الأمان فنصاب بالإغماء .. تناثرت أشلاؤنا فوق الممالح و السهوب والسواحل المخيفة .. كنا نطارد شبح الغزاة وزيفهم ، أسلمنا الشفقة للعصور العتيقة . تلقينا الرماح المسمومة باسم الله ؟ ...يا لذلك الجحيم المتجدد الالوان الساقط من السماء .. وفوهات المدافع أو من أشداق المتهورين . خفف الوطء عن أعناقنا الهزيلة ؟ .. اختفت لغة الحسم الى الابد .. صرنا نراوح عند أقدام الخجل .. تكبر الآهات في اعماقنا فتخرج بكاءً .. نلوح بيد السلام .. تفاجئنا السخرية .. موال من الطلعات المفزعة تجتاز المدى وصوت احتراقنا يسمع من بعيد . لا صوت لي بين ضوضاء الخراب لكني أسمع للروح اضغاثاً وللقلب أنيناً ، أمتلك الحواس البلهاء في راحة اليد أبعثر صور الأهل المتآكلة في ذاكرتي الخربة .. أشم عطر الحنين الى أيام مرة ، البداية والنهاية .. اجمع الآهات في قدم الموت الصدئ للحياة تيار اهوج يجرفنا بلا شفقة نحو هوة الأزل ،ليس في عمرنا غير عبث الصغار .. ومضات تتلاشى كالبرق . أريد معنى للوجود و لذة لا تمل عند انتهائه .. ولماذا يكون الاسى محطتنا الأخيرة دائماً ؟ .. أكثر النعم على القلب أقلها مجيئاً تنفجر الدموع مطراً على بقايا الروح المهملة ..

الف شكر لفراغ اسمه النسيان يلتهم الحوادث المنهكة و تبتعد لتصبح ذكرى لا نتمنى تكرارها .

في ملاجىء أكياس الطين و السلاح الصدىء التعب .. في طيات أسِرة الجنود وبين هؤلاء .. توجد لحظات للسعادة او للسمو فوق أحزان الحراب . تنشرح الصدور على هواها .. وتخرج الكلمات فرحاً وضيقاً ، باستطاعة الانسان أن يخلق

من الشيء ضده . هكذا اعلمتنا الحوادث من أن التغيير سيد الموقف ، المفاجئات عرضية على الحياة او لنقل هامشية ،، أي معنى يسكن ان توحي به هذه الاكياس المتآكلة في بقعة الارض المهجورة الا من الموت .. أي تاريخ يؤرخ الايام التي تنساب في النسيان .. رغم أن التاريخ يصنع هنا ، أو لنصحح ..يبدأ من بين اكياس الرمل والملح .. ادفع الخطوات بين الملاجىء التي تثير فيَّ الغثيان حين لا يكون هناك قصف ، أشم رائحة هي مزيج من البارود ، ودخان السكائر وتعرق الجنود وملح الارض . رائحة حامضة تثير فيك تساؤل التائه .. يدخل في مسمعي صوت ربابة .. موسيقى الاطلال المهدمة هنا تصدح أو تتأوه المهم انها تثيرني .. أقف قرب ملجأ الموسيقى المنبعثة حناناً عميقاً .. قلتُ هنا سومر القديمة أو اور البالية .. لا ، هنا الحرب الطويلة .. ينضغط القوس على الوتر فينبعث الأنين .. تأوه ، زغردة صوت بل موسيقى تصل الاعداء عبر سطح الماء .. أزرع نفسي أمام باب الملجأ الخشبي أحدق في داخله ، ثمة فانوس محمر يقبع في زاوية و في الزاوية الاخرى يركن أحمد الصويلح يداعب الوتر الفريد ويسن القوس عليه فتخرج انغام تجعل القلب كائناً قابلاً للترويض .. تنقل الموسيقى أحمد الصويلح الى أحلامه وودائع عمره .. أرى ملامحة تذوب في هذا اللحن الذي يكسر الفؤاد و يقطع أجنحته .. يزداد انهماكه .. جهد عضلي وحسي يتفاعل هنا في ملجأ نصف مضاء .. يكون اللحن الخارج أكثر صدى و شاعرية .. ان للالحان الجميلة صفة الدفيء ، انها تجعلك تفيض حرارة رغم البرد أو ربما تنسيك البرودة .. هي هكذا : حزن لكنه دافىء يأتي من اعماقنا المهجورة ..

اننا نبني رغبة الدخول اليه ، رغبة البقاء وراء الباب . أستمتع بعبث الاصابع و الوتر عندما ينضغط القوس عليه . يزداد أنين الربابة . في الملجأ ثمة ريح هادئة تدغدغ أعضائي ، أراه يمسح وجهة بمنديله ، يلح على عينيه .. ان الموسيقى أخرجت دمع العيون .. ألقى القوس والربابة أمامه ، تنهد الى آخر الأسى .. حدق في السقف .. أخرج سيكارة من علبة سكائره .

طرقت الباب

- ادخل .

- مساء الخير .. قلت ذلك بعد أن دخلت الملجأ.

نهض من مكانه غير مصدق تأخذه المفاجاة ..

- اهلا سيدي لقد فاجأتني ..!

- اتت بي آهات هذه التحفة ..

- ارجو ان يكون صوتها قد أعجبك ..

- لقد نقلتني الى اجواء أخرى . ما احوجنا اليها ، انها تثيرني .

جسلت دون أن يامرني بالجلوس فقد أردت أن اشعره باهتمامي ورغبتي في سماع المزيد .. قدم لي سكارته التي لا زالت بين أصابعه ..

- شكرا لا أدخن .

- اتحب صوت الربابة ؟

- اذا كان العازف ماهراً مثلك .

- هذا اطراء قد لا أستحقه ..

- بالعكس انت رائع في انغامك ..

-روعتي جانب من تدريب شاق و طويل ، ورغبة جارفة أكتسبتها من محيطي الذي شجعني ورعاني .

- يبدو من كلامك أنك من عائلة تمتلك الحس الموسيقي وتجيد العزف على هذه الآلة ؟

فصمت ولم يجب ، احس ان اختناقاً قد كسى حنجرته و احمرارا غمر وجهة ،، جحظت عيناه ببلاهة .. ثم أسبل جفنيه .

- لم تجبني ! ؟

- لا فائدة من جوابي ، ثم اني لا اريد ان اشرك أحداً في همومي

- لكني مسؤولك المباشر ومن حقي أن أعرف عنك اشياء كثيرة .. قد أستطيع مساعدتك .

صمت يخيم لحظة صدق او حقيقة .. انفجر بركان من أعماقة الرطبة الطيبة ..

- انا رجل يقال له أحمد الصويلح .. أسم يوحي بالخفة أو السخرية .. ام ماذا غير هذا .. هي أسماء الدلع . لها دلالتها الفلكلورية أكثر من معانيها المعنوية .. يشاع أني ولدت في قرية أسمها (الحكنة) ، لا ادري في أي زمن و أي فصل وفي أي

بيت هذا ليس مهماً .. المهم هي الاستمرار بعد الولادة يقولون أني ولدت عام ١٩٤٧ – الشهر مجهول طبعا –

طفولتي تاريخ ضائع .. أو حلم مبعثر .. هكذا تأتي للحياة ، بالمصادفة أو نتيجة لشهوة الوالدين التي ينميها الفراغ الواسع .. لا أتذكر طعم حليب أمي بل لم أذقه ، لقد تكفلتني نساء كثيرات ، وقد يكون الحليب الذي رضعته ليس طاهراً – رغم اني ضد هذا –

لا ضير أننا محكومون بتقاليد لا أعرف مصدرها ؟.. يوم جئت للدنيا ماتت أمي التي لم يكن لها أقرباء .. يقال انها أبنة احد الرعاة الذين ماتوا وهم حفاة وراء الماشية .. أما أبي فلم أر وجهه أطلاقاً ، يعتقد انه تزوج فلسطينية وبقي هناك عندما كان في الجيش عام ١٩٤٨ ويظُن انه قتل في حيفا ..

امرأة عجوز قالت لي أنك بقيت بعد ولادتك يوماً كاملا تصرخ من الجوع الى ان جاء الغجر فانتشلوك ، لم ترضعك امرأة واحدة بل كل الغجريات ، ومن ذلك الحين أصبحت غجرياً بالحليب . لقد علموني العزف على الربابة ..آه كم أحب هؤلاء الذين يسمونهم الغجر . لكني أتوق لمعرفة أمي و أبي .. اتمنى لو عشت في كنفهم ، لا أذكر اني كنت مكتسياً في طفولتي ، كان اجمل أيامي حين يتعرى الاطفال للسباحة في النهر حينها تذهب الفوارق ..

يسمونني أحياناً أحمد الغجري ، انه اسم يفرحني .. عظيم أن انتمي لهؤلاء القوم الذين حافظوا على تقاليدهم منذ آلاف السنين ، فمهما كانت نظرة العالم عن هذا التراث ، ثق انه جميل ، لا مكان للحزن فيه ،، هل رأيت غجرياً كسى وجه الأسى

يوماً ما ؟ . انهم مصدر الفرح .. لكن الزيف والخراب دبَّ فيهم الآن كل ما اخشى أن يذوب الغجر في المجتمعات ، في هذه الحالة سيخسرون الكثير ،، ويخسر من اندمج معهم ، أريدهم أن يبقوا غجراً ...

ما أقوله بقايا الذاكرة وفضلات النسيان .. سأنبش ذاكرتي وضميري لأقول أيامي . لكني لن أقول كل شيء ، أنني أتحاشى ظلم العالم . فليس كل ما في الذاكرة يسكب في مخيلتي ويبقى شاخصاً ، سفر الغجر الدائم بين القرى ، أسمال من الخيم . وحمير هرمة عجفاء .. كلاب مسعورة .. شيوخ كبار .. ينزوون في الخيم . لا شد ما يحتقر الغجر الرجال . فتيات يوزعن الهوى والفرح في القرى المجدبة المقحطة .. هي رحلات بحث عن طعام أو عرض لبضاعة يقشعر لها الجلد لكنها قيم نسبية و متغيرة بين كل الناس ومختلفة في مقاييسها في كل المجتمعات .. هنالك من يقيم لنا الولائم من شيوخ القرى ، لازلت أذكر طه المسمار ذلك الشيخ الذي كنا نعسكر عنده أياماً .. كان يطعمنا ويكسينا ويشرف على وصلات فرحنا ، ولهذا يتغنى به الغجر و فتياتهم ، انه رجل كريم حقاً وهناك من يطاردنا بكلابه و متهوريه من الشباب .. كان لي حمار اسود صغير امتطيه حين يشد الغجر الرحال ، أنا واحدى الفتيات التي كانت تكبرني بعام ، لكنها سريعاً ما توجت من احد شبابهم ، صدقني كنتُ أعبدها .. أنني لحد هذه اللحظة عندما أتذكرها يرتجف لذكراها قلبي ، لا اعرف مصدر هذا الحب .. وهذه العاطفة التي ولدت من عدم . أفنيت اياماً وعمراً و جوعاً و مرحاً يباع في خيم الغجر .. انني انتمي لعالم الفرح لكني أقع في وهم الاحتقار .. كل احاسيسي تقول لي هكذا لكني اقع في وهم الاحتقار ،، كل أحاسيسي تقول لي هكذا لكني أرتد احيانا الى أرذل التصرف .. ابرة توخز الضمير

في قمة الفرح فترجعني الى قعر اليأس . هذا انا كتلة من التناقض والتردد أتمنى بل أرغب أن اذوب في عالمهم و لكن على أبسط خطأ مني أوبخ و أذكر بأني لست منهم ، وبأني من احدى القرى و بلا أهل .. من هم الاهل ؟ أنهم الانتماء والمحيط الذي لا يتأوه من عيني .. التصق بهم .. انشد الى لهوهم ، أرتاد مضاربهم في كل أصقاع العراق .. هم تربتي التي ترعرعت فيها . يندفع بي العمر الضائع و أكون في ريعان الشباب ، تأتيني الهواجس و تلسعني وخزات الالسن الطويلة ، يثيرون فيَ رغبة البحث عن الأهل .. عن الجذور .. عن أهل أمي وبقايا قريتي . ادخل في خصام مع فتاتي الغجرية التي أعطتني قلبها .. تتمايل مع أنغام الربابة كالعشب في الريح ..(ياه) على لحظات هي العمر وغيرها سدى . لا أدري ماذا حدث لي حين أدميت رأسها نتيجة لتهوري عندما رأيتها تكلم احدهم ، لا أظن الذي بيها وبينه كان حباً ، ربما مجرد كلام ، صاحت فزعة .بعد هذا اجتمع حولي الغجر وكان مني أن هربت و كان منهم أن رحلوا الى جبهة أخرى ؟!

أحمد الصويلح أنك تضيع الاهل والمأوى بعد الأم الحقيقية . أهيم هجرة في القرى .. الجوع يدفعني الى بيوت تبصق في وجهي .. وليس للبرد الذي يلسعني أسمال تبعده عني .. انني ادفع ثمن غلطتي فأمسح بأقدامي كل أزقة البيوت و عتبات الدور التي تقيم الولائم . على اي ذنب يمكن أن يثرد المرء ؟ وعلى أي أرض يصوب فوقها أسواقه ؟ . لا يمكن أن أسقط في الخنوع ولكني أستفيد وبقوة من درس التهور .. ماذا خسر الغجر ؟ وماذا ربحت انا ؟ وماذا جنت فتاتي ؟ وأي ذنب حملت حين بادلتني المشاعر التي اجتاحتها بعنف ؟ . ماذا بقي غير جسد منهك وربابة هي جواز السفر واداة الانتباه والرزق ؟ كنت اجلس بين القرى وانوح بآلامي حين

أداعب وترها بقوسي .. أنها متنفس الهموم التي تتجمع سريعاً .. أنستني المقابل وألفتني . فحين يحط بي الرحال الطويل وينهكني سفر اللا هدف أسقط جسدي بمحاذاة احد القبور واترك أحلامي وتيهي و لا أصحو الاّ بعد أن ارتوي من النسيان والخدر . .اجمل الايام حين يصادف تجوالي في القرى عرس او فرح ما .. فأنتقل بين المحتفلين ، سريعاً ما أجلب الانظار حولي لأني سيد الربابة المفقود .. كنت ابقى اياماً في بيوت الافراح والعرس ، ويزداد احتفال الناس و تشد سعادتهم البريئة ، و تشارك القرية بأجمعها و أحصل جراء عزفي الربابة على الملابس والطعام الدسم ، و الاعجاب من الفتيات وزوجات الشيوخ والارامل .. على فكرة .. أن في الارامل شوق كبير ، وشهوة لا ترد ،، رغم شوقي وسعادتي كان في نفسي أسىً كبيراً ، حين أداعب ربابتي يزداد كبدي احتراقاً .. لقد عرفت أنواع الالم . لكني أشعر أحياناً بلذة و أنا أعاني من لوعته لأن ما أقوم به يلقي الاستحسان و الاعجاب . سنوات والحال هكذا . لقد خلقت تقاليداً جعلتني أضاهي حفلات الغجر التي تقام .. أتراني نسيتهم ؟ كلا .. أنهم في دمي وفي وتر ربابتي ، في أحاسيسي ، وفي دموعي التي تنساب .. عندما ينفض المحتفلون عني .. أنهم أيامي الوردية ، وتجربة الصبا .. كيف انسى من ادميت حبيبتها سهواً ؟ . حين يكون المرء غجرياً يكون احساس الرحيل هاجسه . والارض مداه والواسع .. لا شيء غير التنقل . أي هم يمكن ان ينهي رحلة العيش ؟ هي أنماط وسلوك نبتت بينهم وطوقتهم بفكرتها و الا ما هذه التضحية الكبرى ؟ تأمل ماذا قدم الغجر للناس وماذا يأخذون ؟ لا يأخذوا اكثر من طعامهم وكسائهم في الوقت الذي هو حق كل كائن على الارض . أيحارب المرء بقوته ويجبر على ان يدفع فرحه وقيمه لأجل لقمة العيش ؟ هذا من

هول الزمن ... و أخطاء الماضي التي تنامت في غفلة الثورة و الاصلاح .. يجب ان يعطي الناس من أجل السعادة من اجل العطاء نفسه ، لا من اجل الاخذ و الاستحواذ على المشاعر والاحاسيس هذه . دنيانا وعيشتنا أن نحطم عدونا الى ابعد الحدود ، أن تجعله لا يقدر على الوقوف اطلاقاً ، ان تحوله من انسان الى مجرد آلي لبيع الهوى و استجداء الطعام .. هذا تصرف مألوف أم ظاهرة لا تلبث أن تزول .. المهم اجتثاثها و قبرها الى الابد .. اننا في زمن التناقض والعدوان الى أبعد المسافات بلا قيود .. هذا عهد التغير سلباً أم يجاباً ، بالإرادة أو بدونها . من المستحيل أن تبقى انت ، أنت .. ستكون ما يجب ان تكون و الا صرت ماضياً مهملاً . أين هم الآن ، في أي السهوب وعلى طرف أي مدينة ؟ الشوق تيار يتدفق من القلب باتجاه من تحبه ، هكذا علمتنا دنيا اللحظة ، أن لا مسؤولية ترقى الى البحث عن الفرح عندما يعقد .. أترانا الآن هكذا ؟ من أين يأتي الانتماء لمن جاء الى التناقض وغادر عنه .. عن أسياد الزمن الذي هوى في ركام الواقع حديثي .. تناجت صرخة القلب و اجتازت المدى ، نحاسب النسيان ، رغم جروحها .. أسهر على ذكرى أو طيف ، أتخيل أنه نهر الامل الذي لن يجف ، ماذا عندي غير هذا .. وهذا هو اعز الاشياء و اتمني انه حلمي و أمنياتي ، لا يمكن لأحد الاستحواذ عليها ،

أسلمت العيون لتأمل حقل القمح الذي يحصد بأنامل ومناجل الفتيات ، حين مررت بقربهم نادتني أكبرهن ، فأتيت . قالت لي أسمعنا أيها الساري ،، فبدأت انغماً تماوجت مع السنابل الغنية بالثمر وبدأت هي غناءً اجتازت الحقول المصفرة الى البيوت الضائعة بين النباتات الكثيرة . لم تتوقف ملحمتنا الا بعد الغروب .

رأيتها تمسح بعض دموعها ، عرفت انها عاشقة ، وحين رفعت بصري عن ربابتي ، رأيت عشرات الحاصدات قد اجتمعن يسمعن بتلهف ، يصنعن حولي دائرة من الجميلات الصامتات ، ثق اني لم الاحظهن طوال مدة العزف ، وحين توقف عزفي وغناؤها انهمر التصفيق والزغردة و شققت طريقي من خلالهم بقوة ، منعني من السير ،، قلت أنني على رحيل أبدي وتركتهن هكذا ،، انها لحظة فرح لا غير ،، ألا ترى أنها اجمل من جمع النمامات ؟ ..

هكذا نخلق السعادة البريئة .. وهذا يجب أن نعيش ، يجب أن نكون ببساطة العشب ووداعته وخفة الريح .. لكننا نعيش العكس ، لقد احتوانا الألم في النهاية ، انه وحش هذا الزمن ،، الى آخر المسافات أسير لا أجد ما في القلب ، لأعيش كما الطير أو لأموت وأستريح بلا جدوى ،، كان عهدي بالمسؤولية عدم. لاشيء غير ربابة ووتر .. تأسرني انغام تأتي من وراء الأفق ، وراء الرؤية و انا في الأسر جريح حتى النخاع ، من يتبعني في ضياعي يتيه و يكل ، اذا لم يجن من كثرة الفوارق . سرت الى أخطر الامكنة فوجدتها أكثر امناً .. ان الهوى لعب جميل ،، بل هو مسؤولية كل انسان ،، أسألني بحق الرب لماذا نعيش بدونه ؟ وكم هو العمر ؟ ألا يجب أن يكون صاخباً الى أقصاه ؟ بالله عليك أنضيع الشباب الذي هو زهرة أيامنا التي يجب ارتشافها حتى الثمالة .. لماذا هذا السيل الهادر من الأوامر والممنوعات وهذا الانقطاع المروع عن الحقيقة التي نبتعد عنها رغم انها في انفسنا ؟..

يجب تجريد الحياة من قيودها .. يجب ان تنساب أيامها كالموجة الهادئة هي هكذا لكنهم لوثوها بفزعهم و تهورهم الاجوف ..

اری ان الموسيقى عندما تعزف بصدق تستطيع ان تغير العالم ، أن تقرب بين القلوب التي ابتعدت منذ زمن ، بل قادرة على وقف الحرب و اطعام الجياع ، أن وقت المشاحنات والنزاعات يجب ان يذهب بلا رجعة .. اننا على عتبة عهد الفرح و الانسجام والحنين .. أنني اتساءل من وراء ربابتي : ما جدوى هذه الحرب ومن هو المنتصر ؟ . ان أكثر المنتصرين هو الذي يوقفها ويحقن دمائها .. اللعنة لها ، لقد اوقفت انغام ربابتي . ما أتمناه ان تكون الحرب غمامة عابرة .. انها سرطان يأكل هيكل السلام و التيه الجميل .. ما اجمل التجوال بين القرى المتناثرة ، ليس هناك من يسألني عن هويتي ، عن مطلبي و مبتغاي و سبب مجيئي ، ما ابتغيه الفرح ، أن نشيع ظاهرة الضحك و البراءة ، اريد الامساك بقراراتي الخطرة اللذيذة ، فخطواتي المتسارعة في الازقة بحثا عن هوى ، عن مجمع للغبطة ، عن أي مبرر لأطلاق انغامي في المدى المتجاوب .. حين أسير تسبقني الالحان .. ولا اشعر بالجوع الا عندما ينتابني اليأس وحين أختلي بنفسي .. تسقط شهوة الهوى .. هكذا انا سيد الالحان و امام الاحبة حين تجتمع القرية عن بكرة أبيها حولي ، أحس أني قد وصلت الى اهدافي واني اطفو فوق نهر الورد والريحان وأنام في حضن أمي وعلى صوت ترتيلها .. أين أبي ؟ . حنان الرجولة الذي لا أعرف طعمه .. هل قتله اليهود .. أم سرقته عاشقة فلسطينية ،، اتمنى الافتراض الثاني . ان العشق اقوى من الموت في النهاية .. أبي : لقد ظهرت كل الحقائق و أستقر الموقف و انكشف الزيف فهل ستعود ؟ امي : ان طعم الحليب الذي ذقته فقد البراءة و الحنان .. لماذا الموت يستعبدكم ؟ لماذا اولد في الفراغ .. في العراء ؟..

لا ، ان الغجر اهلي في الرضاعة .. وهذا نسب شريف . انهم كما قلت اكثر خلق الله انتماءً لتقاليدهم .. و أكثرهم شرفاً من الذين ألفتهم حتى الارض ، أتدرون أن الحقيقة لا تموت بل تختلفي لمدة ،، يا أنا لما هذا الجموح .. هذا القرار والتساؤل ؟ ولم هذا الضعف امام اللحن ، أمام الفرح ؟ ان لا وقت للأنغام هنا ، أنك يا أمد تُحرج البيئة وتعمل عكسها .. من أين تأتي السعادة ... انه زمن بعيد .

لا أنني أريده و ان كان حلماً .. انه جميل .. انه رائع .. حتى و ان كان العوز مسُلطا علينا .. لكنني كنت أقوى منه .. لا تقتلوا فيَّ هذا التوق الكبير الى الطيران فوق المآسي و الابتعاد عنها الى الأبد .، اريد حرية البداية .. البداية .. اريد هجرة الغجر ..التي بلا حدود .. هي أمّ ماتت في المخاض .. و أب ضاع في درب الكفاح المطعون .. هل تراني أبالي بالموت العادي ، ما يقلقني أن يقتلني الاعداء بلا سبب .. أتساءل بكل جوارحي لماذا يتوقون الى الجريمة ..الى القتل بلا حدود ؟ أحياناً ينتابني شعور : أقرر ان أقف على الساتر و أغني للسلام و الحّن للتآلف والتفاهم ، للمحبة .. ترى هل سيتجاوبون ؟ هذا محال ، فمن البداية يكون الخطأ ويكون التلقين .. انهم يمتلكون قناعة الموت ورغبة الدمار .. يا للخطأ الفادح .. من يدفع هؤلاء ؟ أين ذهبت أنغامك يا .... أين هي أشعارك الجميلة ؟ ألم تقع في نفوس هؤلاء ؟ انك تنبت في أرض جرداء ، انك جئت بالخطأ اليهم ،، أين فاتنات فارس ؟ وكل جزلهن ،، لا يجعلهم يفكرون بالحب ، و لو مرة واحدة ؟ ..

يا للفضيحة ، لقد داس هذا الوحش المدمى على تحف البلد في أقدامه .. لقد قلب الموازين ،، يقولون أنه يحتفل بالموت ، سمعت انه احتفل بافتتاح نافورة الدم ، لِمَ لا

تكون نافورة العسل .. الخمر .. الورد . انا لا أتخيل شعباً انتزعت أفراحه بهذا الشكل المروع .. هذا فأل سيء ينبيء بنهاية العالم وبؤس حضارة .

كل المستحيلات موت الوتر ، والغريب ان تأتي بالربابة هنا . اترك للقلب البكاء بلا قيود .. سأرحل الى الحلم ، الى الرغبة ، يشدني ذلك المنتهى ،، لماذا يصير الماضي حلماً بعيداً هذا سؤالي ، تنتابني رغبة البحث عن مشوار السعادة ،، ياه او كلما ذهب المساء انتابني شهور القلق .. في بحثي عن مسقط الراس عن اهل تركوني أرتوي من حليب الغجر ، سأقسم بالعدم ، بحليب امي الذي لا طعم له اني سأعود الى ماكنت قبل انقلاب الموازين ....بين الدروب متكسرة بالوديان ، وقطاع الطرق ، في سفري المستمر صادفتني ملهمتي حين جلست تحت شجرة التفاح كان المساء قد أقترب والنهر يعبر أطياف الظلمة ، خيم صمت اول الليل .. جاءت تحمل بيدها اناء لجلب الماء من النهر . هي لا تراني و انا أبصرها بدقه .. عند صفحة الماء الساكنة شمرت عن ساقيها ، بيضاء كالحليب ، تشع بالنور.. اغتسلت أقدامها الرقيقة الناعمة بالشاطئ ، القت الاناء جانباً وجلست على حافة النهر ترقب الافق والشفق المتلاشي ببطء ، تهت في تصور الكون .. كنتُ ابصرها بدقه .. كائن جميل جاء من اول المساء ، شجرة التفاح هيكل من الخضرة .. ثمة رائحة لبقايا الثمر .. نسيت الاهل والغجر معاً ، هنا سأحط ، ليس مهما أن اجد الاهل أو أفقد الغجر ما دام في الكون من يعوض عنهم ،، من يشغلني .. هذا مكان رحب فيه من الجمال ما يغري و يؤنس ،، تأجج في داخلي احساس الفرح .. أسكرني ، أمسكت بالقوس وضغطت على الوتر ،، فانبعثت الموسيقى ..في هذا المكان انتصبت نظراتها الى شجرة التفاح .. اكتشفتني ، وبلا مبالاة واصلت

تأملاتها للنهر في هذا الغروب ، استمر عزفي على انغام قلبي بخجل و لكن بإصرار . انين الربابة يجتاز العالم ،، يعبر النهر .. يتوغل في أحراش الاشجار ، وهي تحدق في المدى الاحمر .نضبت أطياف مشاعري ،، القيت الربابة جانبا و بدأت أغسلها بنظراتي الثاقبة المندهشة ،، يفاجأني تعادي زورق وهو يقطع النهر نحوها ،، اجتاز الماء العميق و رسى قربها .. يترجل منه شاب وهو يبتسم ملء فمه .. وسيم ..قامت من جلستها .. اشتبكا بعناق ،، التهم بعضهما البعض .ريح هادئة ،، تهز الزورق بتأنٍ ، استمرت سمفونية الحب . افترشا عشب الشاطىء ، أخرج لها من جيبه أشياء لم أتمكن من معرفتها ، ابتسمت ، ثم غابا في عناق طويل ،، القيت ربابتي على كتفي وسرت ،، قلت أهكذا يفعل الحب ؟ أكانت تراني ؟ ، أتسمع ماذا أعزف ؟ لا اعتقد ذلك .. ان كل احلامها وخيالاتها و تصوراتها منصبة على انتظار فارس احلامها . ان هذا أسمى شيء في العالم .. الانتظار المثمر

سرتُ بلا جدوى ، فيَّ من التناقض اشده ، ومن الاحباط أقساه . اتيه في دروب الشوك و سواقي الهرب . أعض على لساني من ندمي الكبير ، لا انساق الا لأوامر القلب الحارة ،، هذه صورة الفشل .. اكون آخر القديسين و اكبر الزنادقة لا فرق ان ذاتي محط لقاذورات العالم ومنبع لطهره ايضاً.

أي قانون يحكم الاهواء ؟ و أي امرأة تقاسمني شهوتي بالعدل ؟ يالبؤس من حولي ، فقد أفرغت المشاعر في الفراغ .. اكون سيد الخسارة المطلقة و ارباح الدنيا بين يديّ ..هذا انا أوزع اللحن المنعش على الملأ لأستريح من رغبة التملك والهبة .. كان السراب مداي الواسع الغامض ، أشق أسرار الوهم لأعود من حيث جئت و البس

العالم معطف الفرحة : حيث داستنا الايام الشرسة ، القي آخر الآمال على الزمن ومصادفاته ، و احتمال الحب الضعيف ، أنا سيد في العراء وحر الى آخر المطاف . ليس أمامي سوى وقت أفرغ فيه ما يؤخر رحلتي ، صراع الذات كبير ، وحب البقاء أقوى لا يا انا ، لا وقت للتردد فالانتظار هزيمة .. ياه ... متى صار الرحيل رغبة وهدفاً حين تضيق الارض بناسها .. لكن لم ابحث عنهم ما داموا سدى ، لكني أريد الانتماء .. ان انتمائي للنغم .. يدفعني للبحث عنهم . في النهاية انتهى بحثي الى هدفي ومبتغاي . كان الوقت صباحاً وأشعة الشمس تنساب بوداعة في الحقول الواسعة .. أشجار الكروم تداعب أوراقها الريح بهدوء .. أرى الحركة الوادعة .. انواع من الطور تسكن في كنف الاشجار العتيقة .. رأيت امرأة ترعى بقرين خارج القرية قلتُ اهذه قرية (الحكنة) فأجابت بنعم .. أنشق قلبي فرحاً و أراد الطيران فوق اجوائها .. عدون في أزقتها وبين بيوتها المتآكلة .. لسعتني كلابها بنباح فزع .. غسلني أهلها بنظرات الشك والريبة ، القيت ربابتي تحت ابطي وسرت في لحظة هي التحول والمصير.. و جلست في ظل أحد البيوت ، امسكت بربابتي ، أطلقت عنانها ، عزفت اجود ما عندي . تهت في انغامها ، دقائق و ساعات .. رفعت بصري .. لم أرَ أحداً وكأنني في مقبرة .أوقفت اجترار اللحن الذي لم يُسمع ، بكيت في داخلي من صدمة نفسي .. اختصرت المسافات الطويلة لأصل منبع الأهل و مثواهم . قلت ان المرافىء ستستقبل عاشقها .. واكن العكس حدث . كانت البلاهة سيدة الموقف . ان كل القيم قد تغيرت و الأحاسيس لوثت في هذا العالم . كانوا يقولون أن اهل قرية (الحنكة) لا يقيمون أفراحهم ودبكاتهم الاّ في المقابر فترى الراقصين والراقصات يترنحون على أنغام المطبك بين القبور .. و ألآن

كل شيء ساكن . كل ما فيه يوحي بالبكاء المرّ . لقد فقدت القرى أفراحها . قمت من مكاني لانفض عن نفسي آخر الآمال الضائعة وشمس النهار تترنح في افق بعيد . الجحيم سكن القرية وثبت أقدامه .. الغربة تيار غمرني حتى النهاية . يكسر القلب اعصار الاحباط و يسلم للأقدام درب الرحيل ، تكون الهجرة قدر أعمى و الضياع كابوس لا ينزاح . مشيتُ مطأطىء الرأس ، تدلت من يدي اليمنى ربابتي . اجتزت فناء القرية ، نظرت نحوها .. كانت بيوتها رمادية تغوص في الخضرة الجامدة ، سرتُ الى العالم الواسع مذبوح القلب أنتمي للدروب الخالية .

في خدمتي العسكرية الطويلة لم تفارقني ربابتي أبداً ، كانت في حوزتي دائماً ومن حسن حظي أن آمر اللواء كان من عشاق هذه الآلة فكان في كل مناسبة يجمع اللواء ويأمرني أن أعزف ألحاني للجنود وكجزء من الترفيه عنهم .. لشدة ما يسعدني تصرفه هذا .. كان يعطف عليّ كثيراً . في أحدى المرات طلبني للقاء به .. وعندما اتيت فاجأني بانه يعرف كل شيء عني .. قال لي انه مستعد أن يدفع كل نفقات زواجي ووعدني بأن يكون أحد الرجال الذين يطلبون يد التي اخطبها . كان يعرف أنني أحبّ واحدة من تأوهات وتر ربابتي .. لكني رفضت وتهربت بأعذار كثيرة .. آخر مرة عزفت له و للجنود عند معارك بنجوين بعد رجوع جحفل اللواء ، عند شاطئ (الزاب) بدأنا حفلنا ، أنا أعزف على ربابتي ، وجندي آخر على (المطبك) والبقية يرقصون ويستحمون بماء النهر ، وحين جئنا الى شرق البصرة .. رُقي الى رتبة أعلى ثم نقل على أثرها . لقد كان رجلاً عظيماً وقائداً انسانياً . بعد كل هذا . أفكر بالزواج .. لأني اعتقد أني لم أعد قادراً على السفر الدائم .. احتاج الى بعض

الاستقرار وقد وجدت المرأة التي ابحث عنها ، و سوف أتزوجها بعد أن تنتهي غمامة المعارك المحتدمة الآن ..

قلت لأحمد الصويلح :

- يجب أن لا تكون هنا الآن .

- هذا افتراض ثم انها حرب شرسة ليس هناك من مبرر ان يستثنى أحد من المشاركة بها .

- أتدعونا الى حفلة عرسك ؟.

- الدعوة موجهة لكل من يعرفني .

- و أين سيكون العرس ؟

- في أي مكان آمن . ان الافراح لا تضيق بها الأمكنة مهما كبرت لأنها تنبع من القلوب .

- ستعزف اجود ما عندك .. اليس كذلك ؟

- هذا يتوقف على مشاعري في تلك اللحظة ، لكني سأكون سعيداً حتماً .

قصف مدفعي مفاجئ يزداد ضراوة .. أردت أن اعود الى ملجأي و اترك أحمد الصويلح وهمومه الصغيرة – الكبيرة .

قلت:

- أسمح لي بالخروج .. أرجو ان لا أكون قد أزعجتك .

- لا بالعكس لقد آنستني باستماعك اليّ .

- وداعـاً

- وداعـاً

****

معركة الفاو الشرسة لم تتوقف ولم تهدأ . أنها معركة لا يمكن ان تستوعبها ساعات النهار وليس لنارها أن تخمد بأيام و أسابيع ، يا لهولها !! فمنذ أكثر من شهر ولغة الحديد والنار تنطلق والبيانات العسكرية تحكي قصة القتال المريع . هي محرقة بكل ما فيها . من المنطقي ان تحتاج الى الكثير من الرجال .. لقد جاء دور لوائنا حين صدرت الاوامر له بالتجحفل قرب ساحة المعركة ليدخلها عندما تحين الفرصة ، أو حين تحدث المفاجآت أو أي موقف يستوجب اقحامه في معركه هي من أشرس معاركنا مع العدو .. و أكثرها حدة .. ينفتح اللواء بأفواجه الثلاثة في أرض الفاو السبخة ، في منطقة تقع ضمن مدة القصف المدفعي البعيد ، لكن الموقف وخطورة المعركة يستوجبان أن يكون اللواء قريباً .

صدرت الاوامر المبكرة للضباط و آمري السرايا و الافواج بالاستطلاع على محاور القتال الثلاثة : المحور الشمالي .. المحور الاوسط و الساحلي : اي الجنوبي ..

السرايا والفصائل تلقي بطشها في هذه الارض الواسعة . الوجوه تقرأ الوجوه ، فساعة الاصطدام قادمة لا محالة .. المدفعية البعيدة المدى تهلهل أم تصرخ ، قذائفها تشق الفضاء باتجاه العدو . المئات من صناديق العتاد الفارغة حولها نتيجة الاستهلاك ..تقع الى يسارنا كتيبة مدفعية بعيدة المدى يسمونها (كتيبة مدفعية ٣٦) . يقول تاريخها انها لعبت دوراً كبيراً في معارك شرق البصرة الاولى وهي الآن تقدم الاسناد الناري لقواتنا وتحطم هجمات العدو في هذه الارض العجيبة .. ما يعيق التقدم والانفتاح طبيعة التربة الملحية . الطينية التي تنز ماءً بسبب قربها من البحر .. الشمس تحرق الوجوه بحرارتها . لقد قدم الصيف مبكراً . هنا لا مكان للربيع . ان الصيف سيد الفصول في هذه الاصقاع .. الارض عبارة عن سطح ملحي بمستوى النظر لا يصدم بصرك الا بجبال السراب التي تظهر في النهاية . لم أرَ أي عشب أو أي نبات . حتى الشوك فهو يكابر ان ينمو هنا على عكس ما أرى في الخرائط الصماء حيث أرى أرض الجنوب عبارة عن مدى أخضر جميل تحسد عليه .

وقف المقدم هذال امام اللوحة الخشبية السوداء يؤشر بالعصا اتجاه الجبهة على خريطة وضعت فوقها .. وبيده اليمنى قالب طباشير يستعين به لتوضيح أي التباس يعترض ضباط فوجه على الخارطة ، ظهرت مدينة الفاو التي صارت بيد العدو ..و ظهر شط العرب والخليج وجزء من جزيرة بوبيان و رأس البيشة والمملحة .. كل المعالم ظهرت على التربيعات . هناك ثلاثة أسهم تمثل الارتال الثلاثة وبعض التقاطعات على المياه و الاهوار التي هي جسور عائمة . أرتكز رأس العصا على نقطة تقع الى الشمال ، من الفاو ، قال عنها المقدم هذه عقدة (١٧) ويدها مفتاح الفاو ويمكن تحريرها عن طريق الرتل الاوسط . ثم اخذ يؤشر على العقد

الأخرى و اهميتها السوقية التعبوية .بعد ان انهى المقدم ايضاحه على الخريطة أراد الاستماع الى استفسارت الضباط .. حدث بعض التساؤل من الضباط و اجاب عنه المقدم .

خلاصة قوله أعلن سنعرف كل شيء عن طريق الاستطلاع المباشر . قام بتقسيمنا الى ثلاث مجاميع . كل مجموعة على رتل وكل مجموعة تتوزع على احد الالوية الموجودة في قاطع عمليات الفاو .

ناداني ملازم ضياء :

- ملازم مراد سيكون استطلاعنا على الرتل الساحلي .

- هذا حسن .. ثم اني سعيد بك لأنك بصري تعرف أرض مدينتك جيداً

ابتسم حيناها وصمت .. كان علينا أن نصطحب معنا جنديين و نتهيأ عند حلول الغروب .. برك ماء محاطة بملح أبيض كالثلج لونها أزرق يميل الى الاخضرار . هناك برك حمراء صدئة . هذه بداية الخليج ، ساحل تغوص مياهه في تجاويف الملح . أرى في امتداد الافق بين الساحل وجزيرة (وربه) الكويتية ..سفينه حربية كبيرة محطمة .. قالوا انها منذ أول الحرب ، (إيرانية) ، أرادت ان تقترب من ميناء أم قصر .. ثم تحطمت بنيران زورق عراقي .. تبدو كهيكل حديدي يتحدى الموج .. ريح جنوبية محملة بالبخار تتوغل في أعماقنا الجافة أبداً .. بمحاذاة الساحل يمتد الشارع الذي يربط الفاو بالبصرة أطلقوا عليه : الطريق الساحلي ، كائن يئن بصمت تحت ضغط العجلات والمسرفات التي تزار ، راحلة باتجاه الجنوب الشرقي الذي يحترق ناراً ..

وبامتداد الشارع ترتكز كتائب المدفعية وبطريات مقاومة الطائرات التي تأتي بارتفاعات منخفضة فوق الخليج .. أرادوا أن تكون مياه الخليج الشمالية البوابة التي تمر من فوقها الطائرات . لكن ذلك لم يحدث . في هذه المنقطة أسقطت كثيراً من طائرت (اف ٥) و (الفانتوم) .. كل شيء حديث العهد باستثناء الميناء والشارع . كل الموجودات بنات الحرب وأداة استمرارها .. في السماء طائرات سمتية تمارس عملها اليومي و تبحث عن الاهداف المعادية .. الدخان غمام أسود يصعد في الفضاء هو العنصر الوحيد الذي يعلو فوق فعل الحرب .. الشمس تودع النهار المتأجج بغروب محمر حزين .. دخان قاتم يحط على صفحة الخليج الوردي .. لا شيء يمنع الطبيعة من ممارسة طقوسها وتكرار نفسها يومياً. انها تملأ الزمن ظواهر تجعلنا نحس به ونألفه رغم قتامته . الانسان يعيش بمقدرات نفسه ليس الاّ .. ليس للبحر أو للشمس أي أسى أو تأثر ، لحظات وتغيب وراء مياه الخليج ..

من هنا دخل (مود) العراق غازياً ، ومن هنا جاء الغزاة الجدد بعد سبعة عقود لا غيرها ، يمتزج رصاص الأعداء و تغوص شظايا مدافعهم في هذه المياه ، وترسو زوراق الغزو في الشواطىء نفسها من جديد ، بعثت الاحقاد و لكن بعنف اكبر ، مكتوب على هذه السواحل أن تشهد بداية الغزو .. وبداية الانتصار ايضاً .. حين دخل مود الفاو قال : جئت فاتحاً رافعاً راية الاسلام ، و هؤلاء يكررون ما قاله ذلك الجنرال الانكليزي انهم يريدون تصدير الفوضى تحت غطاء الاسلام .. يا لهذا الخداع الكبير .. يا لخبث الغزاة الجدد .. أنظر باتجاه كتائب المدفعية تصب جام غضبها باتجاه العدو مخلفة وراءها المئات من الاسطوانات النحاسية الصفراء ..

انها المرة الاولى التي أري فيها الشمس و كأنها تغوص في الماء . أحسستُ أني وحيد في احدى الجزر الصغيرة وفي اعماق البحار والتاريخ أيضاً .. هنا يتولد الحنين الذي يحبس الدموع ويغرقك في غربة الروح ويذيبك بالكون الذي حولك .

الى متى نبقى نبحث عن صدق المشاعر وتوازن الحق مع خصمه ، هي موجات حق تأتي تحت جزيئات الماء ثم تخرج للسطح ، التاريخ يلسعني لكي لا اغفل ، انام ويدي في جرح القدر العميق . هنا تتولد الظلمات القاتمة ، هنا في زوايا النفوس التي تتنفس الزوايا المنسية . أخرج من زمني لأدخل جوف الاسلاف ان نكون قادرين على حمل عبئهم الثقيل .. سكون هائل يجتاح التنفس . موج غاضب يغمر الاقدام ، كائنات العالم السفلي تصرخ في الرأس .. الحرب هوية الزمان الازلية .. رويداً ، رويداً يختفي النور .. رويداً يظهر الظلام ، تنسحب الشمس بلا بقايا ، يخيم ليل الحرب الطويل ، يفرمل سائق سيارة (الواز) عجلات سيارة تقف أمامي كأنها فرس شدَّ لجامها بعنف . انتبه اليها .. أنظر في داخلها ، ارى ملازم ضياء وجنديين معه ..

– اصعد يا ملازم مراد قبل ان يدركنا الوقت !.

– نحن في أول الليل و الوقت مبكر .

اصعد الى داخلي السيارة .. كان في جيبي قلم ودفتر ملاحظات صغير . لم يكن معي أي سلاح غير مسدسي الشخصي . لكني مطمئن للجندي الذي سيكون معي فبحوزته بندقه محشوة بالعتاد و الاحتياطي الذي عنده . ثم أن مهمتنا استطلاعية تستوجب علينا أن نتحاشى العدو الاّ للضرورة . في السيارة التي تقلنا

تكاثف الظلام . بعد لحظات لم أعد أرى غير جمرة سكارة ملازم ضياء وبعض الاضوية الخافتة قرب مقود السيارة . عليك ان تسيير بلا ضوء وتسرع أيضا . هذه بديهيات السير ليلاً ثم ان الشارع مستهدف من قبل العدو ويجب أن تسرع كثيراً لتتجنب انهمار القذائف والراجمات .. في الطريق الساحلي الذي نحن نمخره بحذر وترقب . تتماوج السيارة ، وفجأة تنخفض سرعتها جراء الحفر التي خلفتها قذائف الاعداء . في الليل تبدو الحرب أكثر حدة .. أكثر قرباً وقلقاً وأثارة للنفوس . شعلات حمر تخترق السماء وباتجاهات متقاطعة ، أصوات رعد و انفجارات . نار وضوء على سطح الارض .. حذر و انكماش في النفس ، ثورة في أحاسيس القلق و الريبة .. سيارات نقل العتاد والجنود و الارزاق والقادة .. كل هذه تتخذ من الليل غطاءً لسيرها من أجل ان يستمر زخم القتال والصمود في السواتر الامامية ارى من جهة البحر صواريخ الراجمات وهي تطلق نحو العدو ، عبارة عن شهب حمر وضوء احمر قانٍ يشق ظلمة الليل . لحظة ثم يختفي نكون قد أدخلنا البحر في دائرة الحرب فلتتحمل كائناته بعضا من الوزر . لنعلم السمك القلق والسهر . ونقذف في وجه القرش شهب الموت التي جادت بها قريحة الانسان من البحر ..من مياه الخليج قدمت القوات البحرية بحمم نيرانها وقدمت اروع الاسناد لرجال المشاة وساعدت كثيراً في وقف تقدم العدو في أراضينا .. عند جسر حديدي عائم يعترضنا جندي بيده مصباح خافت الضوء ، يقترب من السائق . نعرف أن علينا ان نترجل بعد عبورنا الجسر بمسافه قصيرة يهتز الجسر العائم بسيارتنا صعوداً ونزولاً وهي تعبره . اطلقوا عليه جسر (التحدي) في بداية الهجوم المعادي وصلت قواته الى الجسر بل اجتازته .. لكن بساعات محدوده استطاع لواء (٦٦) قوات خاصة

من تطهيره وبدأ بازاحتهم و اخذ يسجر الارض .. لم يمض على اجتيازنا الجسر أكثر من عشر دقائق .. حتى اعترضتنا سيطرة عسكرية ، شاهدت بعض الجنود يترجلون من السيارات العسكرية . أيقنا أن هذه نهاية حركة العجلات .. نزلنا بسرعة من السيارة و غادرنا السائق مسرعاً بعد ان اتفقنا على أن يجدنا في هذا المكان بعد أربع وعشرين ساعة بعد نهاية الاستطلاع . علا وميض المدفعية وضوء انفجارات قنابل العدو ، تظهر عشرات السيارات المحطمة على جانبي الشارع وبأشكال مختلفة .. ثمة نار هادئة تخرج من محرقة احدى السيارات ، وبعض الجرحى الذين يتشبثون بالسيارات العائدة . بمحاذاة الشارع على جهة اليمين بين الخليج والشارع .. هناك خندق شقي قليل العمق امرنا احد الجنود أن نسلكه اذا اردنا الوصول الى لواء (٩٩) الذي كلفنا بالاستطلاع عن قاطعه . أرض الخندق الشقي طينية تتماوج فوقها كأننا نمشي على أرض الصابون .. أزيز الرصاص يمر من فوق الرؤوس التي تنحني وهي تعدو بتعب ولهاث ... الشظايا تتساقط في الشق و على الجوانب تثير في القلب الاضطراب ، للقذائف التي تجتازنا صوت يوقف النبض وحين تنفجر ما عليك الا أن تضطجع في عمق الشق تنتظر نهاية تساقط الشظايا ..

يضيق الخندق بنا عندما يصادفنا العائدون من الجرحى وجنود نقل العتاد و الارزاق . التقانا بعض الجنود وهم يناخون ويحملون أحد الجرحى .. ما قاله الجريح وسط الانين .. آه .. يا أماه ..

للأمهات دين على المرء وحنان يأتي من اللاوعي . انها أصل الفرح والحزن معاً .. انها العالم بتناقضاته .. نمشي الى الخوف لنزداد امناً . نحن كائنات الليل المدفوعة الى الموت ، المسلوبة الاحاسيس التي لا تنظر وراءها . بل لا يحق لها أن تختلس حتى نظرة .. يسبقه ملازم ضياء بالسير في الشق .. لم أكن أتصور انه بهذا التحمل وهذا الاصرار .. رغم انه مدخن من الطراز الاول ينحني كالقوس ويسير كالقط .. انه اكثر البصرة حباً لها وأشدهم ضراوة في الدفاع عنها .. مرة قال لي يجب أن ندافع عن البصرة كما دافع الروس عن لينغراد ..قلت له يجب أن ندافع عنها وهي مفتوحة الابواب وليست محاصرة كما هي لينغراد .. قال نعم نعم .. يجب أن لا يحاصر الاعداء البصرة أبداً مهما أعطينا و ضحينا .. نندفع في الشق ويتبعنا جنودنا .. رأيس عرفاء ستار وعريف غازي .. يزداد صوت الطلقات قربا و ازيزها شدة .. يتقدمنا ملازم ضياء وكأنه يعرف الارض مسبقاً .. يلتقينا جندي مجروح في ذراعه الأيسر . نسأله عن اللواء فيقول بعد قليل ستصلون مقره .. الحمد لله سنكون في المقر .. عبارة عن أكياس من الرمل على أرض سبخة طينية .. أرى بعض الجنود يتوسطهم ضابط برتبة عقيد يستعين بعصا .. قال له احد الجنود أنهم ضباط استطلاع من لواء (١٠١)

رحب بنا ، تقدم منا احد الجنود وقدم لنا قنينة ماء عليها علامة (فرات) شربنا ، توقفنا عند العقيد مدة من الوقت ، بدأ عليه تعب كبير و ارهاق عالٍ جعله يجلس على أحد الاكياس عند باب الملجأ دون أي اكتراث للقنابل المتساقطة بكثافة . أمر أحد الجنود بأن يدلنا على الفوج الثاني الذي ستكون وجهتنا اليه .. انطلقنا باتجاه

الفوج ، تفتح القنابل حفراً عميقة في الارض .. يتناثر الطين والماء والبارود والشظايا ثم تسقط جميعا في هذا الفناء الواسع– الضيق.

يتسع القلق فيها و تضيق اماكن الامان .. بين موضع قذيفة و اخرى متر من الارض أو أقل . هكذا نزل السخط والغضب على أرض الفاو .. ينتهي الشق الى برك ماء صغيرة و آثار أقدام متسارعة الخطى في الطين .. فوضى الترقب والخوف هنا .. نسير الى الفوج .. ونصله فلا نتوقف ألاّ لفترة .. أحظروا فيها الدليل الذي سيوصلنا الى السرية الرابعة في هذا القاطع من جبهة الحرب الطويلة مع العدو .. يقترب مقر اللواء كثيراً من الساتر الأمامي بسبب ضيق مساحة الارض و لأجل السيطرة على أحداث معركة مستمرة منذ اكثر من شهر .. أننا نقترب . هكذا تبدو معالم الارض ، تقل الحركة ويصبح للمكان وحشة عالية .. دليلنا جندي هزيل يسير بنا في ظلمات تضاء كل فترة .. نحو مكان سنرى منه العدو وجبهة القتال . ما قاله الدليل أن السرية الرابعة تبعد عن العدو ثلاثمائة متر موضعها عبارة عن جحور صغيرة .. لا تدخلها الاّ وأنت ممتد مع الارض .. ليس لك أن ترفع رأسك في النهار الاّ للرد على هجوم العدو .. ليس هناك أي ساتر يمكن أن تحتمي به ، كل ما هنالك أكياس مليئة بالتراب ثم أضاف الجندي الدليل ، ستجدون مواضع كثيرة خالية تستطيعون فيها أن تروا الجبهة جيداً . قلت في نفسي .. مواضع كثيرة خالية لابد أن أصحابها قد استشهدوا بهذه السرعة .. سريعاً ما يحفر المقاتل مواضع قتاله وراحته و سريعاً ما يموت ؟ ...

يؤشر دليلنا بيده على مواضع السرية الرابعة ويعود مسرعاً في درب الطين المتعرج كأن العدو قد أحس بنا . انهمرت علينا قذائف المدفعية وقنابل الهاونات بكثافة عالية . بسرعة تدفعنا خطواتنا باتجاه الملاجئ .. أنحني عن باب أحدها . أحدق في داخله لا أرى غير ظلمة متكاثفة و رائحة الرطوبة والطين الذي كسى اصابعي التي ارتكزتُ عليها لأدخل .. أكاد أن أفقد ملازم ضياء ورأس عرفاء ستار وعريف غازي ، لا بد أنهم دخلوا في المواضع أيضاً لحين انتهاء القصف المركز .. أحبو في جوف الملجأ الذي لا يتجاوز ارتفاعه متراً .. عبارة عن نصف انبوب مقوس ويسمونه في العسكرية (الارامكو) اندفع فيه اتلمس بأصابعي بطانية .. أفرح في داخلي . قلت في نفسي سأضعها تحتي لأتجنب الرطوبة العالية .. تنضغط تحت ركبتي قناني ماء (الفرات) الفارغة .أندفع اكثر .احس أني ألامس جسداً بشرياً . قلت انه جندي قد سبقني الى هنا .. أردت الخروج الى ملجأ آخر لم استطع فالقصف يزداد قوة ، حركته بيدي ليفسح لي بعض المكان .. امتدت يدي في الظلمة ، وقعت على وجهه .. رفعت يده و تركتها فوقعت حرة على صدره ..صحت به .. لا مجيب . قلت انه شهيد اذاً . رفعته من ظهره باتجاه الجدار ليتسع المكان ، وضعت البطانية بيني وبينه ثم قرفصت .. اسمع ارتطام القنابل بالأرض و انفجارها المخيف . صوتها عندما يتجاوزني يأخذ صوابي ، يهتز المكان .. يأتيني طين قذفته احدى القنابل التي انفجرت قربي ، يكون هذا الجحر أوسع مكان في الدنيا عندما تضيق الحياة ويخيم شبح الموت .. يكون احساسك بالعالم سدى .. تصبح بلا بصيرة ، تفقد العالم الذي حولك ، تكون انت فقط بل روحك لا غير ، لا أعير اهتماماً للذي قربي ، اتكور على نفسي ويأخذني دعاء

السلامة .. اعترف أن الانسان ذاتي حتى العظم .. تسقط القنابل أمام فتحة الملجأ ، أحتمي بالشهيد ، أمدد الجسد بمحاذاتي . من غرس فينا هذا الشعور ؟ .هذا الاحساس بقيمة الروح وضرورة المحافظة عليها ، لماذا هي تسبق كل شيء في الاهمية ؟

تخف حدة القصف وتذهب غمامة السوء .. يبقى الرصاص الخفيف وتأخذ المدافع بعض الراحة .. اتنفس الصعداء .. أمدد الأطراف على هواها .. أحدق في سقف الحديد المقوس ، أسرق النظرات على المسجى بامتدادي .. المكان ملجأ في الطين اللزج ، ليل ثقيل ، اطرد الآهات .. تأتي أشباح الموتى ، اندم على قناعات كانت خطأ فادحاً ، تختصر المسافة بين الموت والحياة الى الصفر ، أشد على وتر القلب الهزيل ..

هنا انحدرت بي المصادفات ، وهنا أصوب الرصاصة الاخيرة عنوة ، العالم بالنسبة لي روح مضطربة وجثة مهملة وعيون تحدق و لا ترى في الفراغ المظلم .. يضيء التنوير السماء فينسكب الضوء في الملجأ أرى اصفرار وجه الشهيد وصور متداخلة من تجاعيد البطانية و خوذة وضوء و ظلام ، انني في التناقض أو في لحظة خطف بقايا العقل .. أو ضياع الايام الهادئة وسط الزحمة الغبية الميتة بأحاسيس وكراهية البقاء بلا خوف .

حين يهدأ القصف ويتوقف ازيز الرصاص اخرج رأسي متطلعاً أرض المعركة ، على ضوء التنوير أرى معالم كثيرة و أشباح كلها تثير التساؤل .. أستطيع ان أميز اتجاه جبهة العدو ومصادر نيران أسلحته . في الليل . سريعاً ما نعرف ونستدل على عقد

النار المعادية بسبب ومضها العالم .. أنادي على ملازم ضياء في هدأة الليل الضيقة . أعتقد انه بعيد عني .. جاءني رأس عرفاء ستار وقال .. ان ملازم ضياء عند آمر السرية ليشرح له طبيعة الارض و الموقف وقوة العدو .. قلت حسناً سيوضحها لي ملازم ضياء أكثر .. انهم لا يريدون ان يجتمع اكثر من ضابطين في مكان واحد مخافة ان يقعوا ضحية قنبلة واحدة ، وقد حدث مثل هذا كثيراً في قواطع العمليات . مرة سقطت قنبلة على موضع كان فيه أربعة ضباط فاستشهدوا جميعاً ...

عندما يتقدم الليل تتعب الجفون وتنام العيون ، يقل القصف الاّ من بعض الاطلاقات الطائشة التي تأتي مخافة ان يهجم أحد الطرفين على الأخر .. سكن الليل على الموتى والجرحى وآلة الحرب .. على انفاس انهكتها حرب طويلة مملة ..ننام على الارض موتى و احياء .. أي حنان واسع تحوي في طياتها . و أي عيش تصنع .. هي الواحة ..هي السماء التي نفترشها و نلمسها باليد ، احدق في الجسد الصامت الذي قربي من أي أرض هو ؟ في اي الاماكن من جسده أُصيب ؟ ما آخر الكلمات التي نطقها وآخر الاسماء التي أطلقها ؟ ..هكذا تأتي الى حتفنا ، لقد حملتنا الاوطان ما لا نطيق و دفعنا الكثير من أجلها .. للمرء غاية في الحياة عليه أن يدركها مهما كانت النتائج ، علينا أن نعيش بعض الجنون الذي هو الصفاء .

خيوط الفجر تأتي على الاجساد التي تسبح في نسائم باردة ، تسمع للامعاء تقلصاتها ، يجف الحلق ، ترتخي أجفاننا الى النهاية ، يتعالى الضياء السماوي ويتضح الكون الواسع . أرى الأشياء الجامدة سيدة هنا .. أتضح الذي قربي ..

وجه أسمر له شارب مغبر ، أرتسمت على الوجه التجاعيد ،، اعتقد أنه متطوع جعل خبزةُ الموت ، لقد امتهن العسكرية حتى النهاية .. حين تضيق بالمرء السبل يسلك أخطر الطرق للنجاة ، وقد يكون اختياره لها حباً و اشباع الرغبة ، أتفحص الجسد ، أرى بقايا الدم الجاف على سترته من الامام فوق صدره ، اتمعنه جيداً يا للهول ثلاثة اماكن في الصدر ينزف منها الدم الى النهاية .. اليد اليمنى ملطخة بدم كثير ، لقد أمسك بالنزف دون جدوى انه أثر ثلاث رصاصات استقرت في القلب ..لقد أصيب في العراء و حين أُنهك جاء الى داخل الملجأ .. أنظر الى الارضية دم متسرب في مساحات الارض المالحة .. أطرد الذباب الذي يأتي سريعاً .. أغطيه جيداً في البطانية .. ثم ألقي بظهري على الجدار الرطب .. و أقدامي تمتد باستقامة نحو الخارج ..

حين تكون قريباً من العدو عليك ان لا تتحرك من المكان الذي أنت فيه أطلاقاً و الاَ كشف موضعك و أصبحت عرضة لنيرانه .. عليك أن تكون جزءاً من الارض الجامدة .. تمر الأنفاس الهادئة نهاراً و تتطلع على جبهة العدو بحذر من الفتحات الصغيرة دون أن تخرج رأسك .. وعندما تحاصرك المثانة بامتلائها فعليك أن تفرغها في أحدى قناني الماء الفارغة .. فهكذا عليك أن تتصرف من أجل ان تحافظ على روحك .. تمر ساعات النهار و نحسب لدقائها ألف حساب و انا محاصر .. الرصاص والملل .

يفاجئني ملازم ضياء عند باب الملجأ :

- كيف أتيت ؟

- اسمح لي بالدخول اولاً (قالها وهو يلهث) لقد وصلت زحفاً

- كم يبعد الملجأ ؟

- خمسة عشر متراً.

- انك تجازف ، حرام ان تخرج بلا مبرر .

- لقد استفدت من السراب .. أنظر ، الا ترى هذا الجبل الابيض العالي ؟ .. انه سراب ، فمن الصعب ان يروننا من خلاله .

- ان لأرض الفاو ميزة جيدة .. عندما ترتفع الشمس يرتفع السراب ايضاً .

- الحمد لله على كل شيء .

رفع البطانية بحذر عن وجه الشهيد . لحظة صمت ، نظر نحوي .. هز رأسه وقال

- رحمة الله عليه .. أعرفت أسمه ؟

- لا . لقد نسيت . كيف فاتني ذلك ؟! . حين حاولت ان أضع يدي في جيبه سحبها وقال :

- اتركه .

- لماذا ؟

- اخبرني آمر السرية به وقال ان في احد الملاجىء شهدي لنا وقد أستشهد بثلاث رصاصات في صدره وهم يتحينون الفرصة لأخلائه ..

- مادام هكذا فلا داعي اذاً .

بعد صمت قصير ونظرات ثاقبة في المدى الواسع من خلال فتحة الملجأ قال ضياء :

- أتحرق الى قدح شاي

- انا اعاني من عطش لكنه ليس قوياً .

- قام آمر السرية بواجب الضيافة .. لقد قدم لي الخبز والجبن والماء معتذراً وقلت له .. قديماً قالت العرب (الجود من الموجود) هذا الذي عندك .

- على ذكر آمر السرية . هل عرفت كل شيء ؟

- ملازم مراد أن العدو معروف و كذلك الارض .. انها أرضنا وهو يحتلها و مستوية تماماً مع البحر .

- أعني قوته ، حقول الالغام ، تجهيزاته ، نواياه .

- ماقاله آمر السرية أن العدو سيكرر هجماته طالما أنه في خانق الفاو ، و نحن لا بد ان نحررها .

- هذا صحيح ، وسيتم عاجلاً ام آجلا .

- سننسحب نهاية الضياء الاخير ،

- ان شاء الله .

- سأعود الى ملجأي .

احذر وبسرعة .

تتحطم الآمال حين تصطدم بواقع الاحباط .. هذه أيام لها وقع الحوافر في الارض ، بنهار الزمن الثقيل عند دماء الشهيد ، أسكن صومعة الصمت ، تتلاشى متاهات الزيف عند حد الحقائق المرة ، قلما نحقق ما نريد ، نتجنب ما نكره ، أي قوة تدفعنا الى السأم بعده الشدة ، للحياة أفق ترتضيه بلا رفض .

نتوارى خلف اضطراب الاحداث وننسى ان لنا آهات ستاتي حتماً ، أحدق في هذا الهيكل الصامت الناطق بكل لغات العالم . أين اختفت خفقات قلب تمزق بالرصاص و أهداف نفسٍ أزهقت ، و ذكريات سنين متناقضة الايام ، في يده اليسرى المتصلبة يطوق أصبعه بحلقة الزواج . سريعاً ما نأسر النساء بأقفاصنا ، ونحملهن ألم النهايات المفجعة و الانعطافات الحادة .. يأتي الذباب الى دماء القلب الجافة .. يا ترى أي المشاعر جاشت في داخله .. أين مشاعر الذباب ؟ . أي المعاني انسابت خلال هذا الصوت الذي يرافق صمت الاماكن الفائرة آتية في غابات الخوف المترامية لا أشواق ألاّ للنجاة من معترك .. المهم أرى عيوناً ذابلة .. و أجفانا مبعثرة تكسوها الاتربة ، تخفي وراءها صور الحلم و الآمال ، صور الحياة الاخيرة وتراكم النهارات المتطاولة في الرأس ، حزين لأهداف العمر لأحلام ما بعد الشدائد .. يدخل التلاشي فيها ، تصبح بلا جدوى .. بلا وجود .. أرغب في تنقيب ذاكرة الميت .. في حل رموزها .. أن أستجلي آخر أيعازات المخ و تأوهات الضمير .. ارهاق حياته ، ليت لي القدرة على الاحتفاظ بهذا الكبير ..هذا السر

؟ .. أقلب صفحة الرغبات و أتوارى خلف يدي التأمل . في انحدار الشمس لينتهي يوم آخر ولينقص العمر الهزيل . يتقاطع في أذني صوت هدير الخليج وحفيف الموج على شواطىء الملح .. شواطىء الدم ، امتزجت الامواج بدماء جاءت من كل انحاء الوطن لتترك في السواحل آثار اصرارها و معاناتها التي فاقت التصور .. الهدير أبن الريح وحبيبها .. الهدير تعبير عن غضب البحر وسخطه . أسمع صوت ملازم ضياء يناديني :

- ملازم مراد تعال الى هنا لأبين لك مستجدات الأمور .

مثل تمساح اخرج من ملجأي .. زاحفاً باتجاهه وبأقصى سرعة ، كان الاعداء يرصدوننا .. ينهمر علينا سيل القذائف الكبيرة ، أمتار قليلة عن موضعنا ، يهتز الملجأ ، أنظر في وجه ملازم ضياء الأسمر .. نظرات ترقب وحذر ، أسمع للشظايا طنيناً وهي محلقة في الجو .. للطين وقع عالٍ عندما يسقط بعد ارتفاعه أثر الانفجار .. هل رأونا ؟ .. أسأل نفسي .. لا اعتقد ، لكن ماهذا التركيز .. ان القذائف تغمرنا بدخانها . وسط هذا القصف أخرج ملازم ضياء سكارة . أشعلها وقال :

- أذكر في طفولتي اني كنت أسافر مع أمي من البصرة الى الفاو .. لأن سلع الفاو أقل سعراً . كانت تشتري الحناء وتزين بها شعري وشعر أشقائي في الاعياد ، و مناسبات زيارة مراقد الأئمة .

- اتعتقد ان أشجار الحناء لا زالت ثابتة ؟

- اتمني ذلك .. رغم استحالة بقائها في هذا الجحيم الذي أسمه الحرب ، ان المحتل لا يبقي على شيء .

- قد يجتثوا أشجارها

- لم أكن أتصور .. أني سأكبر بهذه السرعة ، وسأكون هنا أستعيد أيام الطفولة باضطراب وسط الحصار .

- ذكرتني . لم توضح لي ما قاله آمر السرية وما المستجدات .

- اخي مراد . لا مستجدات ولا غيرها .

- اذا لماذا ندهت عليّ ؟.

- أشعر باليأس والحزن .

- لماذا ؟!

- لا ادري .!

- أنت خائف ؟.

- كيف تراني أنت ؟

- لم أعهد الخوف منك .

- لِمَ السؤال اذاً ؟

- مجرد سؤال .. أنك تثير فيَّ التساؤل .

– أنني أسأل نفسي لماذا يحاربوننا دائماً .. لماذا يحتقروننا الى هذا الحد ؟..

– سأعود الى ملجأي ، الى الشهيد الذي يرقد فيه .

– كما تشاء .

بلحظة اقترب من ملجأي الذي فيه أمني و استقراري ، أشعر أني لا أراه . أفقده ، ازحف يساراً .. يميناً ، الارض مشوشة حتى آخرها . أتوقف ، أنظر باتجاه العدو القريب . سراب كثيف ، أطمئن أحدق في المدى اجيل النظرات .. أبحث عن مكاني .

عجيب أين أختفى ؟ أأشعر بالأغماء ولا أجده ؟ .. لا أني في كامل انتباهي ، ازحف قليلاً للأمام ..

يا للهول !! ، الملجأ يتغير وحفرة بعمق متر مكانه .. أرى بقايا لقدم الشهيد في الحذاء .. وقطع لحم مسودة .. النار تلتهم آخر البطانية . أنظر بأسى ، لا وجود للشهيد .. ثمة امعاء في القاع ، رماد البطانية الاسود يجثم بصمت وخيط رفيع من الدخان يصعد نحو الأعلى .. اعصار من العواطف يجتاحني ، برد . حزن ، حقد على الحرب ، على القتلة .. تنطبق السماء على رائحة الشواء البشري .. أرى ارتفاع السراب الى الفضاء القاحلة ، تميل الأرض ، يزحف الخليج نحو الملاجىء ، يضيق الكون بأسراب البعوض .. و أسقط ، أتقيأ ما تبقى في الامعاء الخاوية . المرارة سكين في الحلق ، الدموع أبر في اعماقي .. أستعيد وعيي ، أزحف باتجاه ملازم ضياء .. أقترب منه .

- ماذا بك ؟ ما هذا العرق المتفصد على جبينك ؟ أنك مصفر الوجه !! ..

- لاشيء .. اني أشعر بالأغماء .

- ما السبب ؟

- السبب قائم منذ سنين .

- لا أفهمك . انك تهذي .

يمددني في الملجأ ويرخي احزمة ملابسي ، يحرك الهواء بورقة عن وجهي ، ينظر نحو الشمس التي تتباطأ وهي تغادر نحو الجهة الثانية من الارض .. القي برأسي على كيس التراب المتصلب المالح .. أبصر السماء .. يقترب المساء .. و أهيء القلب للعودة . هي تحولات خارجية تفرض فعلها عليك ، تكون عبدا لها نسميها الاحداث وقد لا تحس بثقلها .. وقد تفرح بها رغم انها تدفعك للهاويه . أشعر ان الخليج قد أستجاب لنهاية النهار ، فقد هدأ هديره . حدقت من فتحة الملجأ الصغيرة باتجاه الغروب . باتجاه الشمس التي تاهت في احمرار الافق .، في مخيلتي ان النوارس تتصارع على أشعتها وتكون غمامة بيضاء لكني لا أرى أي طير ، لقد هاجرت الى أفق بعيد . الى شطآن اكثر أمنا . الغموض يكتنف الغروب ، والغربة .. تأتي بالتأمل في جماليات الطبيعة التي لوثها الانسان .. يجتاح السواحل بخار ثقيل ، هو جزء من غضب الخليج .. تبرز الملاجىء في الأفق مثل عجول البحر على الشطآن البعيدة ، تختلس فرصة الأمان لترى انتهاء النهار الى البحر ، الى الحلم .. الضياء الاخير تلاشى ، تململ الجنود في الملاجىء السئمة .. مثل النمل عندما

يتقيأه جحره ، تظهر الرؤوس فوق الملاجىء تتطلع الى آخر النهار و أول الليل ، الى بقايا الذكريات .. هي لحظة الشفق وعناق التناقضات ، يفقد المرء أحساس الانتباه الى نفسه ، يتركها و هواها .. أسمع موالاً من بعيد باتجاه احد الملاجيء التي قرب الشاطىء يفرغ السأم المتراكم حول القلب .. يتقطع الغناء بلا موسيقى في المدى الواسع . أنه الحنان الى الحرية و لهو الفؤاد . يلاحق الغناء آخر النور المتبقي .. يتوغل في مسمع الاحياء و الاموات ليعلن ان الغلبة للفرح دوما .. انفجار يدوي باتجاه الصوت .. ينقط الغناء فجأة .. ترتد انفاسنا الينا ، فقد جاءت متقدمة كثيرا على وقتها ، و لا احد يستسيغها .. اننا نعطي ، ثم نعطي دون جدوى ، وهذا مستحيل ، يستفيق البحر غضبا لأجل الدموع التي انهمرت .. للقلوب التي احترقت بقايا رحيق و آثار رماد .. هل يسكرنا التعب والسهر المخيف ، ويستمر موتنا أشلاء بلا كفن .. نلقي الزهور على الخصم فتتصلب وتصحب جحراً في جبيننا .. الهي أي الاعداء نحارب ؟ .. أي أناس نخاصم ؟ نستقيم كالاشعة فيوقعوننا في الكهوف المظلمة و يخرجون غرائز من حقد وتبجح .

يغرق الليل ألارض بظلمة ، أهيء نفسي للعودة من الاستطلاع .. يقذف ملازم ضياء بقايا سيكارته الأخيرة ويقول :

– سنعود الآن ..

ثم ينادي على الجنديين .

****

دق بوق الحرب في فناء الأرض التي أفترشها جنود الفوج الثالث .. الصدى والصوت توأمان في أفق الملح .. تجمعان عندما يخرجان في المدى .. من جوف البوق الذي ينفخ به بتكاسل العريف حميد .. يتعود العسكر على تمييز صوت البوق على نغماته ، هناك ألحان تخص الطعام .. و اخرى للإنذار والطوارئ ، وتلك انغام الحرب والقتال ، و أخرى خاصة بالنوم وبالتعداد الصباحي والمسائي .تطبق نظريته كل يوم في معسكرات الجيش في كل انحاء العالم .. العريف حميد يتوسط الساحة المتربة ويبعث الحان الرحيل الى القتال .. الشمس ترسل أشعتها ببشرته السمراء وبيده اليمنى يمسك بالبوق النحاسي الاصفر .. يده اليسرى تنفل في جيبه .. يتراكض الجنود بتثاقل نحو اماكن تجمعهم كل حسب سريته .. يتقاطرون على الامكنة المخصصة وفي ملامحهم علامات المقاتل الكبيرة .. الهجوم .. في أي القواطع .. ومتى .. من معنا .. وأي السواتر ستطهر .. أينا سيرحل عن هذه الدنيا ؟ .. وأينا يعود ؟

لتكن تلك اللحظة علامة خطر .. وفترة اهتزت بها مشاعره .. وسار فيها نحو القتال ضد الاعداء .. من قفزت في خياله وهو صامت بوجه الشمس الحارقة .. صور أطفاله ، و أمهم التي جعلتهم الحرب غرباء .. وضيوفاً .. من ترك وراءه مشروع الحياة ليعود له بعد انتهاء العاصفة ، بعد انجلاء الموقف .. وظهور الحقائق

التي تؤلم كثيراً .. من منهم وهم يتراصفون يتغلغل في نفسه الخوف والتردد ، و احيانا يأس النهاية القريبة .. كلهم خبروا الحرب ، وكلهم صارت لهم قدراً من سنين .. وصارت حديثاً بل نهاية كلام تسرق الشفاه وسخافة تافهة يتشبث بها الاعداء .. تنهض الآن قيم الرجولة .. و تتلاشى قيم اخرى .. يظهر المعدن .. ويغيب معدن آخر .. هنا الامتحان الذي يعري الحقيقة و يوقف المرء بلا حاجز .. أمام الموت ، أمام القدر .. فيهم من يوزع النظرات في الأرض السبخة ويترك انفاس القلق في فضاء اضيق من خرم الابرة و أمر صغير بالعودة ..

تسعون مقاتلا أمامي هم رجال السرية الرابعة ، هم قوتها التي ستدخل معركة الفاو من اوسع الابواب وفي وضح النهار .

يظهر مساعد الفوج النقيب فايق طايس في وسط السرايا الصامتة وبيده مكبر صوت .. يتكلم ، مناديا للجميع ..حسب السرايا ..الخواء محمل بذرات رمل و بخار ملح .. الفوضى والضجيج تسودان المكان .. الأصوات تتعالى بلا معنى ، وجوه تسبح في تساؤلاتها ووجلها .. ينادي النقيب فايق بصوت يتردد حتى امتداد الخليج ويأمر منتسبي الفوج بارتداء كافة تجهيزاتهم الحربية والتهيء للحركة فوراً ..يأمرهم بالتفرق و ارتداء تجهيزاتهم بسرعة ثم العودة الى اماكن تجمعهم كل حسب سريته .. فجأة يتفرق الفوج .. ويبدأ الجنود ارتداء عدد الحرب الحديثة .. التي تمكنهم بها أن يدخلوا معركة ..

بعد كلام النقيب فايق عرف الجنود والضباط أن اللحظة التي جاؤوا من اجلها قد أتت ، سيدخل الفوج الثالث معركة الفاو بعد انتظار .

بعد معايشة لأجوائها الصعبة وشحن الهمم ، وتهيئة الجنود لحالة أسمها الحرب ، أسمها القتال .. يبدأ تجمع جنود السرايا بعد ان أرتدوا عدة الحرب .. أقف أمام السرية مسافة عشرة أمتار وبجانبي آمر السرية ملازم أول علي حسين . قال لي :

– تأكد من انهم ارتدوا كافة التجهيزات وخاصة الاقنعة الكيمياوية لان العدو أستخدم الاسلحة الكيمياوية في معركة الفاو كما تعلم .

– سأفتشهم بنفسي .

ينادي النقيب فايق على آمري السرايا للمثول أمامه . يتجمع آمرو السرايا حول المساعد النقيب . أراه يقرأ بورقة صغيرة .. وهم حوله يكونون حلقة صغيرة ، ثم يعود ملازم أول علي بسرعة الى سريته و بوجهه علامات الجد ..

قال لي بصوت واطيء :

– صدرت الأوامر لنا بالتحرك الى الرتل الاوسط المسمى (رتل الرشيد) لاسترجاع مواضع أحتلها العدو من لواءي (٤٨ و ٩٦).

– لنخبر المقاتلين اذاً ..حتى نزيل عنهم هذا التساؤل ونضعهم على الحقيقة .

– هذا صحيح .

ثم قرأ ملازم اول علي بإيجاز البرقية الفورية التي تامر لواءنا بالهجوم المقابل على العدو ..

بسرعة تقف سيارات الـ (ايفا) برتل ويبدأ الجنود بالركوب فيها ، لكل سرية سيارتين . كانت الاوامر تؤكد على ضرورة عدم جعل العدو يستفيد من الوقت ومنعه من ان يقوم بتحكيم مواضعه ويستفيد من موطىء القدم الذي حصل عليه . قالت المعلومات أن العدو هجم على هذين اللواءين بعد منتصف الليل ، بقوة تقدر بفرقتين ، بالإضافة الى قوات الحرس ، و استطاع هذان اللواءان القتال حتى منتصف النهار الثاني حين نفذ ما عندهم من عتاد .. وبعدها تمكن العدو من احتلال مواضعهما .. لقد وقعت خسائر كبيرة جداً بين الطرفين وخاصة الطرف المهاجم .

قال لي ملازم اول علي ..سيتجحفل مع لوائنا كتيبة دبابات وسرايا مغاوير ..ستكون على الجناح الايمن ..وعلى الجناح الايسر لواءي (٥٠٤ و ٤٢١).ما قاله ملازم أول علي يستند على تقارير الاستخبارات التي قالت أن العدو قد أُنهك ويجب أن لا يتأخر الهجوم المقابل ، ولهذا يؤكد القادة الميدانيون على السرعة .. أنظر الى ساعتي ،كانت تشير الى الواحدة ظهراً .. الشمس معلقة في اعالي السماء ترسل اشعتها المحرقة على الكائنات المتصارعة في وضح النهار . الحرب الطويلة تجعل عملية المباغتة مستحيلة .. وتوقيتات المفاجأة ليست محكومة بالليل .. ثم أن الهجوم المقابل لا يقبل التأخير اطلاقاً .. ولهذا تقدمت الجموع في منتصف النهار . أستقبل ملازم أول علي السيارة الاولى ، وأنا ركبت في الثانية وقال اتبعني . في الشارع المزدحم بالسيارات والمصفحات و الدبابات التي تذهب وتعود من و الى جبهة الحرب علينا أن نسرع وأن نختار المكان الملائم والفرصة السانحة لترجلنا السريع .. ترتفع بنادق الجنود للأعلى وعلى ظهورهم عدة الحرب المليئة بالعتاد ويتجندون

اقنعة الوقاية من الغازات السامة .. تتماوج السيارة بين الحفر التي ولدتها الصواريخ والقذائف المنهمرة ..تبدو الارض راكظة عكسنا .قال لي السائق:

– قبلكم دخل المعركة الفوج الثاني .

– منذ متى ؟

– الساعة الحادية عشرة صباحاً .

يسقط صاروخ معاد بجانب السيارة لكنها لا تتوقف ..ارى السيارة التي فيها ملازم أول علي ونصف جنود السرية قد توقفت فترة من زمن عصيب هي لحظة الاقتراب من النار ..نقترب منهم ..

قال السائق :

– هنا الترجل سيدي .

بسرعة يترجل الجنود ويدير السائق مقود سيارته عائداً متلافياً القصف الكثيف .. انظر في المدى ، فالأرض أمامي على بعد امتار .

أربع سيارات محطمة في الشارع وشفل محترق لا يزال الدخان يتعالى منه . أقترب من ملازم اول علي الذي جلس بمحاذاة الشارع تجنباً للقصف ، قال لي :

– ملازم مراد سأقود انا خمسة وأربعين جندياً وأنت تتبعني بعد عشر دقائق بالبقية .

– حاضر .

أنطلق ملازم أول علي بمجموعته حيث قسمت السرية الى قسمين متساويين .. الدخان يتصاعد في كل الاماكن وصوت الانفجارات يتزاحم في الرأس . يلتصق الجنود بالأرض التي تصعقها القذائف دون وعي .تشاكس سطحها الريح الثقيلة ، تتوزع مجموعتي بمحاذاة الشارع وهم يحتمون بالحفر من الرصاص والقنابل .. تعبرني فجأة سيارات (واز)صغيرة ممتلئة حتى آخرها بالشهداء والجرحى ، تتخالف الجثث والرؤوس بوضع فوضوي في داخلها ، أرى الارجل تلامس اسفلت الشارع تفتح أبوابها من كثرة ما حملت ..الانين يتعالى فوق صوت محركاتها ، السائق هو الكائن الحي الوحيد الذي يمتلك الارادة ويقودها وسط الجحيم ..تسقط امامها قذيفة هاون ثقيل ..تقفز السيارة في الهواء ، يسقط أثنان من الشهداء على الشارع ، يتناثر مخ أحدهم وتدهسه السيارات التي اندفعت بالعشرات لتديم زخم الهجوم المقابل .

من المستحيل ان تخرج السيارات عن هذا الشارع لأنها ستغوص في الارض الطينية وبالتالي تتحطم من كثرة القصف.. ولهذا كان الشارع المؤدي الى ساحة المعركة عبارة عن حفر وأشلاء ودماء وبقايا ملابس و احذية ومعلنات طعام وبنادق محطمة ، رمانات يدوية ..أنه درب يؤدي الى نار محاصرة .. أنه الفوضى والصخب المخيف بلا حدود .

تتوغل في الارض الى الامام باتجاه العدو .. أرى في السماء الطائرات السمتية تنزل حممها على الساتر الذي أمامي وصوت هدير المدفعية يجتازني ، لحظات ويتجاوز الانسان الرعب ، بعد الدخول في المعركة المحتدمة يمر به قليل من الوقت وهو يخادع

انفاسه ومشاعره ، تصرعه الاضطرابات والهواجس المخيفة ، ثم يذوب في أتون المأساة .. ويصبح جزء من هذه المطحنة التي اسمها الحرب . يقترب مني قاسم ، أراه يهمهم بكلمات لا أفهمها و يؤشر بيده ..عرفت انه قد رأى مجموعة معادية . قال: وراء ذلك المرتفع الصغير ارى مجموعة معادية . أثناء الكلام ينسحب أفراد المجموعة المعادية ، يطلق عليهم النيران من بندقيته ، أرى اثنين قد سقطا ، وواصل البقية انسحابهم المضطرب ..تسقط قربنا القذائف وتنطلق اعناق بنادقنا ..أرى الأرض غباراً وضباباً ، سراباً ممزوجاً بدخان ، في هذا التداخل الغريب من عناصر الطبيعة ، أشاهد العشرات بل المئات من جنودنا وجنود العدو .الصراع يأخذ شكل التحدي والموت يمسك باليد والزمن يتأرجح على صوت الرصاص . التاريخ يدون بالبنادق الصدئة والدماء الحارة التي انسكبت فوق الملح .. أمواج من البشر تصطدم فيما بينها ، تحاول ان تمسك بالأرض ،أن تفرض ارادتها . الرصاص المادة الوحيدة التي يمتلكونها و اجادوا استعمالها بكل تأثير ، يزحف نحونا المئات من الاعداء ..نصدهم بأعجوبة ثم يرتدون بعد أن يتركوا الارض مجللة بالقتلى ، يتساقط الشهداء والجرحى كفراشات شاردة .. يصادفني سيل من الجنود الذين ينزفون دماً وعرقاً من الرؤوس والايدي والارجل والصدور ، يتراكضون بانحناء ليخرجوا من أرض الجحيم ، ارض الاحتراق العالي ، في الملاجىء المهدمة انين الجرحى غير القادرين على اخلاء انفسهم .أتوغل في الارض الحارة المخيفة ، أصل جسر سموه (جسر الموت) لأنه صار مقبرة لقوات العدو ..احتله العدو خمس مرات ثم أعادته قواتنا منهم ..عبارة عن خرسانة حديدية توصل بين ساترين . يتراوح طول الجسر خمسة عشر متراً ..علينا أن نمر من تحته لأننا غير قادرين أن نعبره ، فالقنابل تتساقط فوقه

كالمطر ..يسبقني بعض جنود وتأخر عني بعضهم ، مررت تحت الجسر ..يأخذني ذهول ..خليط عجيب من الأشلاء ، الرؤوس المحترقة ، الاجساد التي فقدت أطرافها ، أطراف ممزقة بعبث. كتل لحم بلا شكل ، ملابس مصبوغة بالدم ، شعر يتخلله دود أبيض ..أناس بلحى مغبرة ..رجال بلا رتب ورتب بلا ناس .. ملابس شتوية وصيفية ،أقنعة وقاية ، غمامة من ذباب ورائحة الخليط العجيب ، ثمة أنين لبقايا انفاس ، أخشاب وحديد صدىء ..تساقط كثيف للقذائف..

اجتاز الجسر الذي احتشدت تحته بقايا الارواح التي احتمت به دون ملاذ . تتقدم مجموعتنا وهي تطلق الرصاص بكثافة .الارض مليئة بالأجساد الميتة والحية ، يقترب منا خمسة جنود ايرانيين بقاذفاتهم ،تحتشهم نيران مجموعتنا ويسقطون صرعى. تجتاز هذه البقعة من الارض الرخوة ..يلتقينا جندي ينزف دماً من ساقة ، قال :

– ان العدو يتقهقر ونحن نقاتله منذ البارحة .

يصادفنا ملجأ مفرزة طبية فيها جندي جريح وبجنابه يجلس ثلاثة جنود أعياهم التعب وانهكهم نزف الدماء من الجروح الكبيرة . لم تندفع من دون توقف نحو الامام . الملاجىء محطمة بعنف ، فقد أسقط عليها العدو أطناناً من القذائف .. كلما نندفع كثيراً نرى الارض قد افترشت بالأجساد المتنوعة .كانت الارض سوداء ، سوداء مثل العالم ، والدخان يخرج منها مثل البراكين .

يزداد العدو تشبتاً بالمواضع التي احتلها وتزداد مقاومته وقوة نيرانه .يصبح الصراع قوياً ، الكل يأتي بذروة جبروته ، والجانبان يطلقان النار بغزارة المطر .. ويتساقط الشهداء دون توقف ويواصل الاحياء القتال بضراوة.

أرى ملازم اول علي من وراء كيس ممزق يقذف الرمان على العدو الذي احتمى بالملاجىء المحطمة .. وهو ينزف دماً.

حسبت أنه لا يعلم ، وصحت به:

- انك جريح .

- أعلم ذلك .

واصل قذف الرمانات على العدو وتقدم جنودنا بعد مقاومة عنيفة استطاعوا ازاحة المقاومة ، بعدها قال لي والتعب بادٍ في وجهه :

- لقد كسرت شوكتهم .

- أخلِ نفسك فقد نزفت كل دمك ..

- ليس بعد يامراد .

- انك تجازف ونحن سنتغلب عليهم .

ثم فارقته وواصلت تقدمي أنا والسرية وهو يريد ان يواصل قتاله ، نظرت وراء ظهري ، شاهدته قد سقط ثم حلمه جنديان .ليس للأقدام أن تطأ الارض الاّ فوق الاجساد التي تناثرت أشلاؤها ..يتقدم رجال السرية بقوة لم اعهدها بهم . انهم يتفاعلون مع الحدث ويصارعون الموت بحدة وعنف .

يستمر اندفاعهم وأنا أتوسطهم .. أرى أحمد الصويلح في مقدمتهم وهو يزمجر غضباً ثم يطلق النار في صدورهم ..أراه ينزع المخزن بعنف ثم يركب الثاني مكانه

ويحصد الرؤوس وهو واقف ..صحت به ان يجلس ..أن يحتمي وراء أي ستر . لم ينتبه لي ، أو لم يسمعني .المهم انه واصل الرمي بكثافة ..لحظة ثم يتقدم أحمد الصويلح بأتجاههم قافزاً من ملجأ الى آخر .

اقترب منه و أصيح به :

- احمد الصويلح .. سلمت يدك .

- وأنت سالم ..أنهم يتشبثون بالارض كالجراد .

أسمع انيناً يسبق صوت القنابل والرصاص .. أرى عشرات بل مئات القتلى . الاشياء مبعثرة ، أنظر للأمام .. أحس بأننا بدأنا بالاقتراب من هدفنا .. أننا الآن قرب نهاية الساتر الطولي .أوشكنا على تحريره ، أحس أن ورائي كل المقاتلين ..أحس أني وحدي أيضاً .. هذا الشعور ينتابني وسط الموتى او أنصاف الموتى ، نصل الى نهاية الهدف الذي رسم لنا ..ثم أجد آمر الفوج المقدم هذال .. أبحث في الملاجىء عن أيهما يصلح للدخول به ..والاحتماء به ..يتبعني احمد الصويلح وقاسم ..أقترب من باب أحد الملاجىء ..أصعق مما رأيت .. ياهول الحرب ؟!. أيراني بيده القاذفة وبوضع الرمي والصاروخ معد للاطلاق..أغمص عيني ، أفتحها ، ماذا ارى !!؟ ..الهي أنه بلا رأس ..كيف حدث هذا ..لقد قطع رأسه بشكل عجيب ..جسد بلا رأس يتأهب للاطلاق ، وهذا الذي رأته عيناي ، يصوب باتجاهنا وبشكل صحيح وبجانبه كدس من صواريخ القاذفة .. وقفت .. نظرت بوجه أحمد الصويلح فوضع البطانية التي مزقها الرصاص فوقه ثم تقدمنا دون ان يكلم بعضنا بعضاً.. صمتُ ..ثم قلت :

- علينا أن نخلي شهداءنا وندفع القتلى .. يا احمد الصويلح .

- هذا وقت مبكر .. ان المعركة لم تنته ولا يجب أن نلقي بهم .

- هذا صحيح لكن بقاءهم هكذا يؤثر على معنويات الجنود .

- الذي يتوسط هذا الجحيم يتجاوز احاسيس وخلجات تتعلق بالمعنويات . اننا في مكان اما أن تَقْتُل لتحيي أو أن تُقتَل ليحيي غيرك ، هذا مصير سيدي .

- سنرى بعد ساعات التطورات ثم أننا نتلقى الاوامر من الفوج .

المعركة كانت طاحنة ..شديدة وملتحمة .. الطرفان اقتربا كثيراً في صراعهما من اجل النصر على الآخر ،حتى أن جنود السرية نزلوا الى الملاجىء التي تخندق بها الايرانيون ، القوا فوقهم الرمانات التي انفجرت في داخلها .أحدق في وجوه الجنود ، الانهاك والتعب تركا آثاراً في الوجوه .. البعض جلس يتنفس الصعداء .. وراء أكياس التراب المتهرئة ، والاخر يستفسر عن مصير زملائه .. الشمس تهرب من هذا النهار الوحشي الى آفاق أكثر رحبة وهدوءً .. الوقت ماقبل الغروب ، تطلق الشمس آخر أشعتها الذهبية على الاجساد المحترقة الميتة بالمئات . قلت انها جاءت من كل أنحاء ايران الواسعة ..لتموت هنا قتلاً برصاصنا وفوق أرضنا ..كيف يفكر أهلهم الآن ؟ ماذا يعرفون عن مصيرهم الاسود ؟.

يبدأ الجنود بجمع العتاد الذي تركه العدو .. وأي شيء يمكن أن يستفيدوا منه .. الساتر الذي بيد سريتنا مستطيل الشكل يمتد طولياً نحو العدو كالسهم .. أي انه ساتر يبرز في خاصرة جبهة العدو .. بهذه الحالة يتحتم علينا أن نراقب الجبهة من

ثلاث جهات .. ان نوزع أسلحتنا بحيث نطلق نيرانها على ثلاث جهات .. النيران من جهة الشرق والشمال والجنوب .. هذا التوغل الضيق في عمق العدو وبين قطعاته جعلنا في مكان حساس يجبرنا أن نراقب الجبهة بحذر واتقان عاليين .خلفنا مباشرة السرية الثالثة ..على الساتر نفسه ..أي انها ظهير لنا ويأتي بعدها مقر الفوج . الغروب خيم بسرعة والوحشة تأتي قبل الخوف والترقب.

تأتينا الاوامر من الفوج باليقظة التامة والتأهب لصد تعرض العدو الذي من المحتمل أن يكون ليلاً ..أمر على الجنود وأشد على أيديهم ، تأكد لي انهم استفادوا من حفر المدفعية العميقة كأستار لهم .. وبقايا الملاجىء التي لم تصبها القذائف .. كان عمق الشق الذي نسير فيه لا يتجاوز الخمسين سنتمتراً . ولهذا يتوجب علينا أن نزحف او ننحني بشدة في مشيتنا .. الليل ظلمة كبرى .. وهواجس تتلاطم ، أضواء التنوير المعادية والصديقة تضيء وحشته .. وتفتح امامنا آفاق بعيدة للنظر لمعرفة أي تحرك للعدو .. فترة صمت هادئة تجتاح المنطقة ، يسكن الفؤاد الى نسمات هواء باردة اكتسبت برودتها من سطح ماء الخليج ..ما هذا الصمت المفاجىء ؟ هذا العادي ،، غير العادي ،، انها لحظة للترقب والانقضاض .أيجوز أن يسكن الليل الحربي هكذا .. ان وراء الهدوء عواصف .. هكذا مرت اولى ساعات الليل عادية حذرة .. الترقب يطرد النعاس عن العيون ومعرفة نوايا العدو وخدعه جعلت الجميع في أهبة دائمية للرد عليه بقوة ..

فجأة يتكسر الصمت الى أصوات تتعالى ونيران يعلوها دخان يضيع في الظلمة ووميض الهاونات والمدفعية يجعل الليل نهاراً.

لقد بدأ قصف العدو المركز على مواضعنا .. يزداد عنفاً.. الارض على الخريطة تربيعات يتحكم بها وينزل قنابله في أي مكان يشاء ..أسمع ارتطام القنابل قربي ، وصوتها حين تعبرني ، يهز أوتار قلبي ..سكون الليل اضطراب و موج متلاطم وزحمة للنهار ..يهتز الملجأ الذي انا فيه كأنه زورق صغير .يا لقوة القذائف انها تهز الارض هزاً .. يقترب مني مخابري العريف طه . أسمع صوت المقدم هذال في الجهاز اللاسلكي ينادي بالانتباه والتهيؤ لصد تقدم العدو ، فقد سبق مقدمه بقصف مدفعي كثيف ومركز .. يستمر القصف مدة ساعتين ، تتوغل في رئتي رائحة البارود الثقيلة الخانقة ..ينقطع القصف المعادي فجأة وأسمع ضوضاء العدو ، لقد بدأت صولتهم .يمتطي المقاتلون ملاجىء قتالهم ويطلقون عنان الاسلحة التي بيدهم ، ويبدأ قتالهم ..للأسلحة حرية الرمي الكثيف ..يقترب العدو ويشتد القتال المروع ..أرى على ضوء التنوير عشرات منهم يتراكضون باتجاهنا ، البعض يتساقط والبعض يرتد والآخر يواصل تقدمه ..تلتهم النيران بقايا الغزاة . أرى(R.B.K) نائب ضابط جويد مهاوي ، تهلهل وسط الليل وشعلة من نار تسكن فوهتها من شدة الرمي واستمرارية ، وهو ممسك بعتلة الرمي منشراً ذات اليمين وذات الشمال ممعناً بحصاد الرؤوس .. يطلق العريف عيدان فضيل صواريخ قاذفته المضادة للأشخاص فتنفلق فوقهم ناراً وشظايا ..يتسمر الصدام الكبير وأستمر بتلقي المكالمات من المقدم هذال بالصمود والاستمرار بالمقاومة حتى يتراجع العدو ..

يصبح العدو قريبا منا ، أمتاراً .. بل تصل طلائعه الاولى الى ملاجئنا ثم تسقط بالرمانات اليدوية التي نطلقها ..

مر زمن هو العمر ..بل أخطر لحظاته ..هو اشتعال الاحاسيس ، وتبخر المشاعر وفقدان النفس والاندماج مع السلاح وحدث أسمه الحرب . هكذا ننسى انفسنا في وقت الشدّة الكبيرة ..

يفشل تعرض العدو ..نأسر جنوداً ايرانيين وصلوا الى مواضعنا وكانوا معنا الى ان اقتدناهم ..

يتعالى صوت جندي من امامنا ، بعد ان يتراجع العدو تاركاً وراءه الكثير من القتلى ، يتكرر الصوت من أرض الحرام منادياً:

– أنا عراقي ... أنا عراقي من لواء (٤٨) .....يصمت فترة .يتكر النداء :

– أنا عراقي أريد الأمان .أنني قادم نحوكم .لا تطلقوا النار رجاءً.

أأمر المقاتلين بإيقاف اطلاق النار والترقب وانتظار النتيجة . يخرج من بين الجثث والحفر ..شبح هزيل ..في الظلمة تراه ..أكثر بعداً ، يرفع يديه للأعلى وبيده منديل أبيض يظهر على ضوء التنوير ..يعدو نحونا بذعر ..يمسكه الجنود ، يقتادونه نحوي ..بعد ان فتشوه جيداً .. قال وهو متعب وأنفاسه تقطع كلماته :

– انني عراقي من لواء (٤٨) ،اسمي سلمان حسن ،سلاحي قاذفة .

– ما أسم آمر اللواء ؟.

- عقيد جميل.

- هذا صحيح .

- انا من السرية الاولى الفوج الثاني .

- أين أهلك ؟.

- في الانبار .

أين في الانبار ؟.

- في هيت .

من كلامة وعلامات الاطمئنان التي اجتاحته تيقنت انه عراقي ومن اللواء الذي ذكره.

- كيف أتيت وماذا وراءك ؟

- حين تعرض العدو علينا قبل يومين ..كان ليلاً ، أستطاع أن يخرق بعض المواضع ويفاجئنا لكننا قاومنا حتى نفذ عتادنا ، بعدها تمكن العدو أن يندفع الى الامام .لقد فقد الكثير من جنوده رغم انه يتقدم للأمام. أما فصيلنا فقد بقي يقاوم حتى النهاية ، كنا في الجناح الايسر للسرية ، يقود فصيلنا ملازم ناصر . أطلقنا كل الرصاص والقاذفات وعتاد الهاون و صورايخ الغاز على العدو ، حتى تكدس امام فصيلنا عشرات من قتلى العدو ، ولكن يا للأسف ،نفذ العتاد ورااينا أنفسنا محاصرين .. في النهاية اخرج ملازم ناصر مسدسه الشخص ورمى به العدو حتى

نفذ ثم قذفه بعيداً وعلامات الغضب واضحة في وجهة .. لقد وقعنا في الأسر ..كنت انا في الجناح البعيد عن السرية ولم يرني العدو .. رأيتهم يقتادون ملازم ناصر مع بقية الجنود . ثم وثقوهم بالحبال وأوقفوهم عند نهاية الساتر .. وبدأوا بإطلاق الرصاص عليهم .. رأيت نفسي وحيداً ، أشاهد هذا المنظر البائس.. اطلقوا النيران على العيون اولاً . بدأوا بملازم ناصر ..ثم بعده جاء دور الجنود ..ثم أخذوا يبصقون على الجثث التي غرقت في دمائها ويتبولون عليها .أجتاحتني خلجات الخوف والوحدة والأسى العالي وانا اضيع في حفرة الاحباط والاحظ المنظر المبكي ..بكيت في وحدتي على حالي ..تمنيت ان اموت معهم .. أقترب مني الغزاة وتظاهرت بالموت وسط الجثث ..سرقوا ساعتي ..وحين واصلوا تقدمهم قررت أن أسير بمحاذاتهم لعلي أجد قطعاتنا وها انا ذا هنا ...

- لقد وصلت ، وسوف نرسلك الى الخلف بأسرع وقت .

- شكراً .. انني سعيد الآن ، لقد نجوت بأعجوبة ، لكني لن أنسى ذلك المنظر البشع .. وخاصة سقوط ملازم ناصر وتكوره على بطنه بعد أن أنهمر الدم من العين التي فقأها الرصاص.

- هون عليك ..الا ترى الارض التي أمامك .. ألا تكفي تلك الجثث كثأر ؟

- لقد كان غدراً .. وليس قتالاً شريفا .

لم يحصد العدو من تعرضه غير الفشل .. ونبقى في أماكننا لا تنام الجفون كل هذا لليل .. وتبقى الزنود على البنادق ..عيوننا تطلق النظرات باتجاه الارض الحرام .. التي تكدست فوقها الجثث التي لا تحصى

****

نهار جديد يحل على الارض ، يكون تاريخاً حين ينتهي الى الليل.. ويكون أثقل احمال العالم حين يحاصرني بآلامه.. ترحل الصباحات بسرعة وتختفي النسائم الصحراوية حين تضحك الشمس في وسط النهار ..يهدأ صمت القيظ ..صمت الظهيرة الملتهب ..أعيد الى نفسي هدوء الماضي والقي التأمل في المدى المحروق حتى النهاية ..اخرج الشهيق زفيراً فاسداً ..أنظر نحو جسدي ..طين ، دم ، اصفرار ؟.أرى عنفوان النهار سراباً ..الرصاص الخفيف يرمي بالمجان ليشيع الموت لمن تبقى .

في زاوية العراق الجنوبية ، بين الخليج والشط ، في هذا المثلث ، في كل شبر من هذه الارض سقط غازٍ معادٍ وانسان مدافع.

الكل يفترش الارض بلا حركة بتآلف عجيب ، تكاد أن تفقد صواب العقول ، فالتراكم كثير هنا .. والارض تضيق وتطفح ناراً ودخاناً ، وأجساداً وذباباً وبقايا أحياء على حافة النهاية ..التعب سيد الموقف ، الفراغ يجتاح الكون بعد عاصفة الليلتين الماضيتين ، للطبيعة احكامها وقوانينها ، من المستحيل على الانسان أن يتلاعب بها ..لا بد للهدوء أن يسود من جديد مهما تهور الشر ..أنظر للسماء ثمة غيمة بيضاء بخارية فوق الخليج تنتهي بنهايات شفافة ..قلت أن حياتنا بلهاء

مثل هذه الغيمة . تنتهي دائماً هكذا بلا معنى ؟..أحدق جيداً : ليس هناك من طير يحط على تلك الاجساد التي بدأت ترتفع عن سطح الارض سريعاً بفعل الحرارة والرطوبة التي تفسخ الاجساد ..تضيق الملابس بالأجسام المنتفخة .. يظهر الميت املساً مرعباً يكاد ان ينفجر .. الذباب يأتي للولائم الغنية بلا صعوبة وبلا دعوة ..يتغذى ، يعصر الدماء اللزجة التي أسودت تحت الجثث ..الملابس متشققة بفعل الملح والرطوبة أو متصلبة كالسكاكين .

ترتفع الشمس عالياً في الفراغ الذي سموه سماءً ..أنراها حقاً كما هي ؟ . اتحرق كتل اللحم العارية ..أم تتفرج دون التفات او أحساس .يتوزع الجنود في الشقوق والملاجىء الباقية والحفر التي قاعها ملح ودماء .أجلس اجتر معركة الامس ، اعود بها الى النسيان ، وأبصق فيما تبقى من سائل في الحلق باتجاه الشرق .قلت ما طعم النصر الذي يتحدث عنه العدو ؟..ماذا حقق وهو الآن في هذا الخانق الضيق من أرض العراق ؟..أتساوي هذه الملحمة كل تلك الاجساد التي فوقها ..كيف لهم أن يستثمروا هذا النصر الذي يدعون انهم حققوه في أرضنا ؟.لا ينقطع التراشق الخفيف بيننا ..فالمسافة بيننا قريبة ..وليس لنا شق عميق يمكن ان نختفي به ونواصل تحكيماتنا م من خلاله ..علينا ان نتقيد بالسكون وعدم الحركة في النهار الا في الحالات القصوى ..يقترب مني رأس عرفاء السرية عكموش محمد وهو يلهث زحفاً ..قال:

– لقد سقط شهيد بفعل القنص .

– من هو ..

- سلمان حسن الذي جاءنا من لواء (٤٨)

- لا ..اللعنة للحرب.

- لقد أصابه القناص في رأسه .

- يا للأسف ..ياللمفارقة ..كان الوحيد الذي شاهد المجزرة التي أرتكبها العدو ضد فصيله ..لكنه مات أيضاً.

نأتي الى الموت أم نهرب منه ، يقف امامنا . يبتعد عنا حين يصبح مثل حبل الوريد .يلتصق بنا حين يكون وراء الصحارى ..أننا محكومون بنهايات مشتركة ..ومصائر متساوية ..انه الشيء الوحيد الذي نقع فيه دائماً ان الموت هو المارد الذي لا يستثني أحداً .. هكذا يستهزىء بنا ويترك الشعرة التي بيننا تطول الى آخر عمرنا ويعود أكثر الماً واشد قوةً ، وكان سلمان حسن رقماً جديداً في قائمة الذين اجتازوا حاجز النهاية الى المجهول أو الحلم أو اللامعنى ..لا ادري كل ما هنالك انه صار جزءاً من الارض التي لا تموت ...

****

أشق هوى النفس لأتحرر الى آفاقيّ الكبرى ..هنا تاريخ الولادة والموت ، الحزن العالي الذي يجتاح الارض والسماء ويغور في الشجر ..هنا تتولد أحاسيس الرهبة المرثية أو البلاهة الفارغة ..تدفعنا أيامنا او حماقاتنا الى هذا المعترك فنكون كالجرذان المحاصرة بالماء ..أو بالنار .

يا سنين التراخي عودي ..او دوري من جديد ..اللهم اننا نموت عرايا ..نموت جياعاً وبلا معنى ، بلا دموع ..اللهم هذا جحيم لم تحدثنا عنه ، لم تحذرنا منه ..كيف لي ان أكون بلا فراغ في هذا الصمت ..في هذا الصخب .أنه صمت الموت وصخب النار والحديد ..أرسم تجاعيد الحماقات العالية لعلهم يدركون معنى أن نموت بلا معنى ، ان نساق الى التلذذ للتهلكة لماذا هذا الحزن العالي ..هذا الاصرار على الجنون ..على الرعونة ؟. أيها الجار المشاكس الخرف الأجرد الأجوف المروع ..تنتابنا همسات النهاية دائماً ونحلم في الامل ، أيجوز ان نكون وقود الأماني وتاريخ الضياع المر ؟..

امتدت أيام الحرب الى القلب فأشعلته بلا شفقة ، انه الحصن الأخير الذي لم تطرقه الحرب حتى هذه اللحظة .. سيدنا الموت والنسيان ..

لا وقت لتأمل اللحظة الهاربة للإمساك بأطياف الأحبة لتناول العشاء الأخير ، لا مكان للأقدام أن تطأه بلا وخز ، هو الموت ..هو .منذ بداية الموج

منذ أتقاد النار ..زيتون على ظهر خنزير وحمام يتقيأ و أسرابٌ من الصقور ..شرود النساء في الرمال الواسعة زماننا ..عصرنا ..تاريخنا .

أن تراني في المكان وليس فيه اننا اماكن فارغه ..فراغ الامكنة اجساد صامتة ..لغو بلا أجساد ..تناقض التناقض .. وخراب الخراب ..عصر الثورات الملونة الغريبة التي يسيل من بين فخذيها دم شعبها .حاربوك من اجل ان يحرقوك بحجة اعطائك النور ..يخدعونك لأجل ان تكون انساناً بسيطاً. أنهم في عصر اللاطبقات كما يقولون

.عصر اللاشرق ، واللاغرب ، عصر المنتصف ، منتصف الفوضى والدمار ..الجنون ..الموت ..السم ..الحريق ..الزيف: هذا عدوي يا متفرج .

حيرة ..حيرة ..لماذا يحاربوننا كل هذه المدة ؟.اذا أردت أن تفهمهم فعليك ان تعرف العد التنازلي للزمن ، ان تعلن للملأ أنك أنت قاتل نفسك ، أن تجرح الضحية التي أسقطوها وتعلن توبتها . أن تهب دمك لقاتلك ..هذا منطقهم ، هذا حقهم .أنهم يستحوذون على الموتى أولاً ولهذا يستمر عامل الموت ؟...

أين منتصف الأشياء الآن ؟ انني أتساءل : أروني منتصف الحب والموت ، منتصف الحب ، سأجد الكراهية الكبرى. واللاحب ..يا حرب ..يا موت متى نهاية القاعدة ؟! متى سقوط الاستثناء ؟!.

ينشق القلب نصفين ، الاول لإغماء الروح والثاني لتيار الحزن .. لماذا تعود الاماني هكذا ..أشم في وضح النهار رائحة عمق الليل ..

لتشرق الروح أو لتنتهي الى جحيم الظلام ..عليك أن تجد نفسك أشلاء في الشظايا ..أن ترى نفسك ندى في النار.. هذا هو المستحيل .. أنا عارٍ في العراء ..التيه يبدأ مني وأليّ يعود ، لاتسألني عمن حولي فانهم أصنام؟! لآكل ما أشتهي أجني وحين أموت تخرج العشيرة في جنازتي فزعة وتعود أدراجها ضاحكة؟! عامر قلبي بلذات العالم .. نتائج الحمق الكبير تنصب فوق رأسي هكذا .. ينسكب الموتى على الارض لأجل البلاهة ماذا ورائي ، أشباه ظلي وقمر يبكي ..سيد هو الموت مثل البحر والغابات ؟!.

لما أرفع الرايات والصوت في هذا الجو المشحون بالموت الوحدة ؟..أكسر القلب أسىً في التمني ندماً على ضياع الحلم الذي أختفى كالبرق ..يا سهام الحرب كفى واتركينا نعرف طعم النوم الهاديء مع نسائنا في زحمة الشظايا والحفر ..تذهب الأرواح وتشرد .. فتبقى كتل اللحم واكداس الاسمال المدمية ..وتظل الاوامر حبراً على ورق ..وتبقى أمنياتنا فراشات الرحيل ..يا ألهي ..كيف اجتمعن هكذا ، عطش الروح والجسد ثم لا أحد يهجو القتلة ولو بالقلب .نقع صرعى التضادات وحصار الطبيعة الرتيب . هي معتوهة لكي تهب الملح وتأخذ الماء ..

هرب الفرات بعيداً عن الحرب .. واختفت دجلة في كهف اعجاز النخيل . رغوة بيضاء لزجة بصاقي ، الشفاه قشرة ملح.. ذبنا حتى النهاية ، وتحجرت العيون واحيطت بالسواد الكالح . في الشق الكريه يضطجع جنديان وأيديهم للأعلى . ثمة انين خافت طلباً للماء.

– سوف نموت... سوف نموت ، نريد ماءً .. نريد ماءً .

لاشيء غير القنابل والسموم العالية .أطلق الكلمات والنداءات في الجهاز اللاسلكي:

– أأتوني بماء الفرات ...بماء السماء ..بدمع الغيوم ..نفتش عن بقايا القناني في التراب، بين الملاجىء المهدمة ، عن الزميزميات في أحزمة الشهداء والقتلى ..نرفعها الى الأعلى ، نضغطها لتسقط النقط العالقة في جوفها الخالي .. أننام عطشى .. هلع في النفوس ..سقوط الروح .. وحش هي الروح أذا رأت الماء ، أذا حاصرتها بالمستحيل.

-سيأتيكم، انه في الطريق، قليلاص من الصبر (ناداني مقر الفوج).

لقد اختفت لغة الشفرة .. ياشمس مايس الحارقة اتركينا نصارع الملح والظمأ .نجتر بقايا العمر في عطش الأجساد المنهكة تلتهب البطون تعوي فيها ذئاب الظمأ المسعورة .. تمتد الألسن الذابلة نحو الارض. والرقاب تتكور في البطون ، نكون فترة العذاب العالي.

ناداني رئيس عرفاء السرية عكموش محمد قائلاً:

- عريف قاسم يلفظ أنفاسه الاخيرة.

- صبراً سيجيئكم الماء ..أخبروني انه في الطريق ..

انظر في الوجوه تستجدي العزيز وتطلب الغالي .

أيها الفرات أقفز الى الممالح، كن مارداً ، واجتح هذا الصراع البشري ، اطعن هذا الظمأ الكبير .. أفقد أعصابي وأقوم غير مبالٍ بالقنص..

العطش يهدد الروح والجسد ، سنروى من عرق الجبين الهزيل ، أجلس عند رأس قاسم : أنين ..انين يضيع بين الفوضى والسراب .. البندقية التي كانت تهلهل أمست ملقية على الملح بلا اكتراث ..أنادي به ، لا يسمع ، لا يقول غير كلمة ..ماء ..ماء .يرددها بلا وعي . الحرب تجعلنا نموت عطشى ..ياه ..لا أصدق ، أيهزمنا الظمأ ؟!.أقفز الى حفرة ماء ..أغرق.. ملح يسيل مع الاصابع .. أتذوقه ..تيزاب .. زرنيخ ، ملح ، حامض..

يا ألهي هذا هو أصل العطش ، من هنا يتولد حريق البطون.

ارتد الى جنودي أتكلم بالجهاز:

- أين الماء ؟.

- في الطريق اليكم .

- أنهم يموتون . لقد طردنا الغزاة وهزمناهم فيجب ان لانموت عطشاً. نريد ان نتذوق طعم النصر . أسرعوا قبل أن نفقد المبادهة ، قبل أن يعودوا ونحن نهلك عطشاً.. أصمت فترة من زمن ..انظر في الوجوه التي عيونها وخزات في وجهي.

- أقترب الفرج.. أقترب الماء.

يأسرنا قدح ماء ، يغرينا بأن نلقي السلاح.. بأن نبيع كل شيء.. أن نترك مواضعنا.. لكن الرجوع مستحيل ، والبقاء انتظاراً للموت.. احدق في وجه قاسم ، لا صوت ، لا أنين .. جسد ملقى وشفاه مقلوبة ..أسحب بطانية ممزقة و اغطيه ، ثم أبكي في داخلي ،ا طلق النظرات البائسة والأنين يتعالى ويحرجني بعد ساعة هي خلاصة لعذا العمر.. يحرقني صياح ومزاح عفوي:

- جاء الماء ..جاء الماء .

يأتيني رأس عرفاء عكموش بكيسين فيها عشر قناني من الماء..

- هذا ما استطاعو ايصاله ، فالقصف شديد حولنا.

- الحمد لله.وزعه عليهم بالتساوي ، وأحتفظ بأحتياطي.

- احتياطي؟!.

- نعم ...نعم ثلاث قنانٍ .

- يقولون انه كثير من قنانٍ معبأة صناعياً وراء جسر الموت .

- سنرسل أذاً لجلب الماء بعض الجنود النشطين .

يتكور الجنود حول عكموش مثل قطط هزيلة ترضع صغارها ، كل يصيح انه يموت عطشاً ، انه لم يشرب منذ زمن .. أسرق نظرة باتجاه قاسم تمنيت ان ينهض هو أيضاً ، لكنه قد أسرع بموته واستراح .. انه الأول الذي وصل الهدف وكان يحمل خمس مئة طلقة بندقية وقناع وقاية وزمزمية ماء لكن القدر كان أقوى اذ أصابت شظية زمزميته فاندلق ماؤها . في قرارة نفسة كان مطمئناً لأنه لم يحس بثقبها وانهمار الماء منها ، وحين وصل الهدف وقتل اثنين من الايرانيين – أرى جثتيهما بقربي الآن – أراد الاستراحة .. اخرج الزمزمية ليرتوي ، فوجدها فارغة. قذفها بشدة في الارض ..بقينا على عطشنا ،كل هذه المدة ، لم تصلنا الامدادات بفعل القصف الكثيف المميت..

حين تحدق في الارض ينكمش قلبك فزعاً، أنها مقلوبة أنها منفوشة ومحروقة ، مسودة .. من كثرة ما وقع عليها من قنابل . لم يتوقف القصف لا ليل ولا نهار. كانت المسافة من خط صولتنا الى العدو طويلة.. والحرارة عالية ، والتعب والانهاك العالي جعلنا نفقد سوائل أجسامنا بسرعة ، والاّ كيف مات قاسم بهذه السهولة.. أنها الجحيم المالح .. لو تأخر الماء ساعات أخرى لمات كل الجنود عطشاً ولكنت أنا أولهم.

ياتيني عكموش بقنينة ماء فيها أقل من الربع ..جلس قربي وقال:

- استطعت ان أحجز لك هذا ..

- شكراً .

ثم القيتها في جوفي دون أن أحس بها وبطعمها . لم يرتو الجنود ، ولكن هذا اهون.. قمت بتوزيع الاقواس النارية بسرعة وأعطيت لكل جندي المكان المناسب وهيأتهم لأي طارىء لمعركة التلاقي والاحتكاك اليومي مع العدو الذي كان بمرمى البصر..

قال عكموش فجأة

- ان هاشم يريد الذهاب لجلب الماء فلنرسه لاننا مازلنا عطاشى ثم أن المعركة مستمرة ..

- لينتظر حتى يهدأ القصف.

- أتعتقد أنه يهدأ ؟!؟

- لابد من ذلك ، فلينتظر قليلاً.

- كما ترى .

- اذا هدأ القصف أرسل جندياً آخر معه تحسباً لأي طارىء يحدث ، حتى نعرف اخبارهم ويساعده في حمل الماء .رددت مع نفسي هذا الاسم (عكموش) اكثر من مرة ، أتراه بابلي أم آشوري أن هذا الرجل من سلالة الاوائل الذي قاتلوا قبل الاف

السنين العدو نفسه . تأملت الاسم جيدا ً، غير قابل للصرف . بحثت عن معناه في مخيلتي.. لأم اجد ..لعل والده الفلاح في ريف بابل وجد أسمه منقوشاً على احد الالواح الطينية ، يخيل اليَّ انه من أبناء نبوخذ نصر ان لم نقل سرجون الأكدي او سنحاريب . قلت له

- كم هو موجود السرية الكلي الآن ؟

- ثمانون .

- انت متأكد ؟.

- نعم .

- هذا جيد .. لكني أريد أسماء العشرة الباقيين ..

- قاسم هذا الذي قربك عبد الرحمن ورياض وسامي استشهدوا في التقدم على العدو ، علوان مازال مفقوداً ، والخمسة الذين تبقوا أخلوا انفسهم.

-نسيت ملازم اول علي.

- نعم رأيته حين جرح في صدره ويده. لقد شاهدت الدم يغطي بدلته ، أتمنى ان لايكون جرحه خطراً.

- عكموش يلزمنا الانتباه والتهيؤ لردع أي تعرض قد يقوم به العدو . يجب اخلاء الشهداء مهما كان الثمن ..

في لحظة حديثي لعكموش وهو مصغٍ يدخل علينا هاشم مبتسماً كعادته ، رغم التعب الذي يكسو وجهة ..قال:

سأذهب لجلب الماء .

– لم تخبرني ، أقتلت احداً في فازك الصدئة هذه ؟.

– أحدهم رأيته يحاول ان يطلق عليك الرصاص فسبقته ، فسقط قتيلاً..

– رائع ..أنك تلح في جلب الماء ..

– انني ضمآن جداً وكذلك أصحابي.

– من سيذهب معك؟.

– كريم .

– حسنٌ فلتسرعا أذاً .

يبعد عنا جسر الموت بألفي متر وهذا يعني انه صار وراء ظهورنا . المسافة من جسر الموت حتى المساعد نقيب فايق تقدر بخمس مئة متر وهو المسؤول عن توصيل الارزاق : الماء والعتاد لنا..ثم ان هاونات الاسناد بإمرته .لقد كانت أعماله كثيرة ومتشعبة لكنه كان شعلة نشاط متقدة .. لا ينام عده أيام .ان نام فساعتين لا أكثر .. من المستحيل ان نستمر ونحن في هذا المكان بإيصال المكالمات اللاسلكية من كثرة الرمي وتركيز العدو لأنه قد يستمكنها أو يسرق الشفرة التي نتحدث بها ويقوم بخداعنا ، ولهذا صدرت الاوامر بسرعة للمخبرين لمد الاسلاك بين السرايا

ومقر الفوج وربطها بالبدالة الرئيسية .لقد عانى المخابرون الكثير من الارهاق لسرعة تقطع الاسلاك من كثرة القصف ، لكن هذا اجراء لابد منه لمنع استعداد العدو وتفويت الفرصة عليه . كان الشق الذي يربطنا بمقر الفوج والمساعد لا يتجاوز عمقه نصف متر .. ولهذا كان جنودنا عرضة لقنص كثيف من العدو الذي كان يأتينا من ثلاث جهات ، ثم ان العدو نصب رباعيته امامنا فكانت ترمي مع طول الشق مجتازة سريتنا باتجاه السرايا الاخرى حتى مقر المساعد . و كثيراً ما أصابت طلقة واحدة اكثر من جدني .. هذا الموقف حتم علينا أن نبني مصدات من الاكياس الترابية لدرء الرصاص الكثيف الذي امطرنا به عدونا وقد نجحت العملية. ثم بدأت تحكيماتنا الاخرى المتعلقة بزيادة عمق الشق وتحصين الملاجىء ، ومواضع القتال الذي سيكون يومياً .. في ملجأي الضيق الذي كان يشغله مقاتل ما قبلي جلست ، كان نصف أنبوب كبير. انظر نحو سقفة حديد صدىء .. يتخلله اخضرار عتيق وبجانبي الجدران التي هي جوانب الملجأ عبارة عن ملح يكون مسانداً..

أتأمل قرص الشمس الذي أوشك ان يتوارى خلف المدى البحري ..

الارض اخضرار كبير.. المدى قمح وعشب وورد بالألوان كلها الربيع سيدنا هنا .. التلال المتموجة ..بساط الخضرة والزهر .. لا شيء سوى زرقة السماء و اخضرار الارض لونان هادئان يبعثان في النفس الارتياح ..

تتركني مسافة أمتار ..تأتيني عدواً كالغزال .. ما هذا ..انه حلم .. أتأتين اليّ هكذا ؟. أيقترب المستحيل من الممكن ؟.

ألثمها .. وأغيب .. اجعل القمح بساطاً لي ..تغمرنا السنابل ، وهي تتراقص .. أنظر باتجاه مكحول .. جبل كحلي اللون .. أستمد اسمه من لونه .لا شجر غير العشبيات التي تنبت بين الصخور .. تنهض معي الى أفق النظر .. يكون مكحول سداً امامنا ..هذا المدى كبير ، كبير.. ايمان تعانقني الى آخر الشوق ..ترتمي على صدري وأسمع نبضات القلب ، تعود الى التجوال في أفق البرية الواسع ونعود ..

- أين نحن الآن يا مراد ؟.

- في مثلث المدن .

- أية مدن ؟

- اننا في بقة تقع أطراف محافظات نينوى وكركوك وصلاح الدين .

- انها خالية من الناس تماماً.

- لكنها مليئة بالخضرة .. ونحن الاثنين .

- كم تبعد أقرب قرية عنا ؟.

- ثلاثون كيلومتراً.

- انني خائفة .

-لماذا ؟ ... ان هذا المحيط الجميل يبعث على الهدوء وعلى الامن فلماذا الخوف ؟.

- اننا وحيدان .

- وهذا ما ابتغي .. نحن لسنا وحيدين ..انظري الى حقل القمح الكبير ، الى ملايين الورود.. الى مكحول .. والى كل كائنات السهول المترامية .

- كيف تختار هذه الاماكن .. كيف تعرفها ؟.

- انني ذئب البادية ..

- الوديع طبعاً

- هذا ما أريد .

الفضاء الكبير يطبق على بساط الخضرة ..مكحول عالياً ، يصعد بصمت . ثمة نسر يحلق في الأعالي يؤنس وحدته .. قد يغني موالاً للربيع ..اضطجع على القمح ..و اغمض الجفون .. تداعب شعري ..تقبل عينيّ .. ارى وجهها صورة في السماء وشعرها يتدلى فوق صدري ويديها تنغرزان في الارض ..كانت صامته.. امرأة في مرآة زرقاء ..تبدو كذلك ، وانا اتأمل تلاشيها في اليم الازرق السماوي ، هكذا بدت لي .. أقعد وتكون امامي ..تختفي في حقل اقمح الذي غطى رؤوسنا ونسمع وشوشة السنابل والسيقان عندما تداعبها الريح الهادئة..قالت فجاة:

- كم تود البقاء هنا ؟.

- وانت معي ؟.

- نعم.

- الى آخر العمر.

– الا تمل ذلك ؟.

– لا أعتقد .

– و أذا هاجرت أنت أو انتقلت أنا ؟.

– أرجو ان لا يكون ذلك.

– سيحدث حتماً.

– أتفكرين بالنقل ؟ ألا يعجبك هذا الفضاء الواسع المخضر ؟.

– اننا لا نختار أماكن عملنا بأيدينا و الاّ لم أكن هنا .

– هذا حسنٌ و الاّ لم اكن قد تعرفت عليك . حتماً ستطلبين المدينة التي ولدت بها..

– لم أكن أعرف ان الريف بهذا البهاء وهذا الجمال .

– أفتحي صدرك للهواء الطلق ، لنور الشمس بلا حواجز ..

– ان الشمس توشك ان تغيب.. آن لنا أن نعود فقريتنا بعيدة .. أنني اخشى الظلمة .. فكيف اذا كانت في الحقول الواسعة .. هيا يا مراد .. هيا لنرحل .. قبل الظلام ، قبل العتمة ، فالشمس تسرع للاختفاء وراء مكحول..

–هيا ..هيا ..رغم اني في أوج سعادتي.

– لقد ابتعدنا كثيراً والغروب قد أقترب..

ملحية يلفها التراب والذرات الصغيرة الملساء. الملجأ لا يتسع الاّ لي ..لكنه في أثناء القصف يكون بحجم القصور وبدفئها الجميل ..كان طوله متران وعرضه أقل من متر. يجلس أمامي ووجهة باتجاهي المخابر طه ..ووراء ظهره جهاز اللاسلكي وبيده جهاز التلفون الذي بدأنا استخدامه الآن ولكننا لا نستغني عن الجهاز اللاسلكي ، نستخدمه عندما تنقطع الاسلاك ولا يكون لنا الوقت الكافي لإصلاحها ..

طه مقاتل أسمر من مدينة بغداد ، يحب شرب الشاي .. قال لي:

-سيدي انك متعب .لم تنم منذ اتينا الى هنا . فاسترح قليلاً ، سأرد على المكالمات غير المهمة ، وسأوقظك اذا استوجب الأمر.

-عيناي لا تأخذان النوم.

- هذا صحيح لكن جفونك متقدة .. وكأنها جمرة ملتهبة.

- انني لا أفهم لقد غدروا بنا كثيراً..

الملجأ الصغير يغص بأنفاسنا الحارة ، البخار الثقيل بمحاذاة سطح الارض . أجسادنا تنز عرقاً كأنه السيل . ثمة رائحة عفنة لزوايا اجسادنا والتقاء الاطراف . من أسناننا التي لم تمر عليها الفرشاة منذ مدة تخرج رائحة غريبة . الصمت يقطعه انفجار القنابل حولنا .. يصعد الدخان عصراً . ما قبل الغروب يكون المنظر رائعاً حين لا تقع القذائف فوق أحد . يحجب الدخان ضوء الشمس ثم ينتهي الى الأعلى ، أمسك الناظور بيدي وأحدق باتجاه مدينة الفاو التي بيد العدو. أرى معمل الاسفلت قد تحطمت خزاناته ووقعت بناياته ، ثمة ساتر حديث يفصلنا عن

معمل الأسفلت أراه يزداد أرتفاعاً بفعل السراب الذي يخرج منه متراقصاً كأنه لهب نار فضية ..بين ساترنا الواطىء وساتر العدو المترفع وفي ارض الحرام اجساد الاعداء .. أرى قربي قتيلاً ايرانياً له لحية مغبرة وبجسمه انتفاخ كبير .. رائحة تفسخ بدأت تنبعث منه .. تقدم منه طه زاحفاً غلَّ يده في جيبه وقال:

– سنأخذ هويته كعلامة انه قتل .ثم ندفن جثته التي تفسخت.. عاد اليّ وفي يده دفتر صغير لا غير ، أخذنا نتصفحه سوية في الصفحة الاولى قرأنا اسمه (حسين خسروي) ، قلبنا الاوراق المكتوبة بلغة فارسية.. أشعار لا نفهمها لكن خطها جميل ..لم نستطع حل رموزها .. هنا بين احد القصائد بيت شعر محصور بين قوسين ..نقلب الاوراق بشغف ، ارى منظراً لقرية جميلة وسط الجبال قلت: انه من أذربيجان !..

هناك صور لزهور وكتابات بالانكليزية ..كل هذا جعلني أظن انه على قدر كبير من الثقافة أو لأقل أنه فنان . أقلب الصفحات ، أقف عند لوحة لا أستطيع ان أفسرها لكنها ذات بعد فلسفي. من اللوحة عرفت انها تعبير عن حياة ، عن وجوده ، عن ما يدور في نفسه وما يتوقع ..لم تكن اللوحة الاّ عبارة عن تخطيط بارع لصورته الشخصية بلحيته التي أمامي تتجلى من عنقه سلسة متصلة بتابوت امام صدره .. هناك في الزاوية اليسرى من الورقة مرآة على شكل قلب وفيها تخطيط لفتاة جميلة يتدلى شعرها فوق كتفها وعلى صدرها وهي تذرف الدموع ونظرتها باتجاه صورته ؟..

أتأمل اللوحة جيداً . انها الحياة كلها بآلامها وآمالها .. بأحلامها ودوافعها . أغلقت الدفتر واعطيته لطه ليعيده الى جيب الجثة.. وفي نفسي قرار بأني سوف لن أترك هذا الدفتر بلا صاحب .. سأضعه في جيبه لكي لا يذكرني دائما بمأساة اسمها الحرب !!..

الساعة في يدي قالت الرابعة ..الزمن.. هل هو متاهة أريد ان أصل أوله .اعرف بدايته ، اختصر آخره الثقيل ادفعه نحو حمله ، فاذا على يدي عقارب داخل قرص حديدي وغطاء زجاجي تؤشر الى الرابعة .. رابعة ماذا ؟ هل في يدي الرابعة أم أنا الرابعة ..أهو الرابعة ؟ ام هذه الشمس العجيبة ؟ ام ذلك اليوم المترب الكالح.. يا للضياع والتيه !!. من قسم الزمن ليتخلص من ثقله ؟ أبهذا التقسيم نلهو ونضحك على ذقوننا ونحسب العمر القصير..

ماذا يعني عمر رجل مات وله من السنين المئة آخر له ساعة واحدة ؟ ما قدم الأول وما اخذ الثاني ؟

ماذا نحصل نحن الذين نتشبث بهذه الايام التي لا تتوقف اطلاقاً ؟ . هل هي الرغبة في التمتع بلذات أيام مجهولة ستأتي.. أم هو التفرج على مهزلة الساعات القادمة أم في النفس احساس عالٍ ليس لنا القدرة على معرفته والسيطرة عليه ؟ لماذا نعمر الارض مادام هذا فعلنا ؟ بل لأصدق القول لماذا نخربها بعد أن أفسدنا نفوسنا ؟ أفي هذا المراس لهونا ؟ .. أفي هذا اللعب الاهوج حياتنا ؟ ماذا يعني لو أبقى هنا الى آخر الايام البالية أو اعود الى شواطىء الحنان البعيدة ؟ أفي اختلاف الامكنة لذة للنفس ؟.

أفي تحطم المشاعر تمزق للروح الشاردة أبداً ؟ .. ماذا هنا غير حصارها وسط اجساد معلقة في الهواء ومدفونه في الملح ؟..مرّت عقارب الساعة ..لأسميها عقارب الروح . تهتز بسذاجة من صَنَعكِ ليُلقِيكِ فوق يدي لتقسمي ساعات عمري ..لأكون عبداً لك . اقول ..ماذا أقول ؟ سقط الكلام على الجثث كالذباب. أبكي ؟ ما نفع بكاء العاهرات ؟ اموت ؟ ما قيمة الموت اذا صار مشاعاً للجميع ؟..أحلم ؟ ما هو الحلم ؟ ..من أين تأتي صوره ؟ اذاً لأنام أو لأغيب عن المكان الى المكان ، ولتسكن روحي في الوردة الشاردة او النجمة الساقطة ، لأسافر الى اقاصي المياه الراكدة ، ولكن هذا انا وسط التئام الجوع على الجرح ، على الجثث .....

منذ يوم دخولنا معركة الفاو الطويلة.. حتى هذه اللحظة .. حتى هذا اليوم الذي مثل سابقاته. مرت أيام انتهت الى المجهول.. انها ليست كثيرة لكنها عظيمة بفعلها ، لما بها من احداث سوف لن تتكرر أبداً.. اخذت معها كثيراً من الصمت كثيراً من المقاتلين الذي أريق دمهم بصمت وماتوا بصمت ايضاً ، لم نستطع أن نعرف خلجاتهم ، آخر كلامهم وآخر امانيهم. ماذا جنوا من حياة حسبت عليهم ؟.. الانسان يدفع دمه دون وعي ويموت بوعي كامل .. أيام مرت الصراع مازال أزلياً في النفوس ، مازال الكلام للنار ، للرصاص. هنا ألقينا أيامنا وراء ظهورنا بحذر وترقب مخافة أن تأخذنا معها . سريعاً ما يتكيف المرء للظروف ويُسخر ما حوله

لخدمته لأجل بقائه ليجعله يواكب احتياجاته .. فبسرعة تعمق الخندق وأصبح أكثر أمناً ، لقد صار عمقه أكثر من متر ، ثم احيط بالأكياس المليئة بالرمل ليزيد الحماية ويصلح للسير ، ليقينا من الرصاص المعادي .. الملاجىء المهدمة أعدنا بناءها واجرينا تحسينات عليها بحيث تقينا بعض القنابل المتساقطة وليست كلها ، لم يعد الماء مشكلة ولم نعد نعاني من شحته . فقد ملأنا كثيراً من قناني الماء وخاصة في الليل حيث قمنا بأرسال الجنود لجلبه .. لقد صار الشق مسلوكاً .. كل هذه الاعمال تمت في الليل عندما يقل القصف ويتعب العدو . هذا لا يعني أن الامور صارت طبيعية وبسيطة ، بالعكس انها حالة حرب . لكنها أفضل مئة مرة من قبل.

خرجت في وقت الظهيرة ماشياً في الخندق. أتطلع الى اماكن الاسلحة وأعدادها . في وسط السرية ترتكز ثلاثة هاونات عيار ستين ملم . أمس أمرني آمر اللواء أن أوجه ضربة للعدو بالهاونات بوصفي أقود السرية المتقدمة ، ليرى رد فعل العدو.. أطلقت الهاونات ستة قنابر مهداد ضد العدو لم يرد.. جنودنا هؤلاء اتعبتهم الحرب وتعبت القنابر ، لكنهم يزدادون اصراراً في الدفاع عن أرضهم.

دخلت موضعاً قتاليا قريباً.. أستقبلني مناحي . ذلك البدوي الوحيد في السرية . قفز الى مخيلتي سن الذئب .. تحسسته بيدي.. لازال في جيب قميصي كل هذه المدة ، قلت مع نفسي اهو الذي حفظني كل هذا الوقت أم تراها المصادفة التي جعلت الصاروخ الذي وقع مسافة متر عني لا ينفجر .. لعلها الأرض الطينية ، ثم

تلك القذيفة التي وقفت فوق ملجأي ولم تنفذ نحوي . لا أعلم ذلك لكني اعتقد ان لي أياماً يتحتم علي ان اعيشها ولو كنت في فوهة مدفع ..

- مرحباً مناحي ..

- اهلا سيدي.

- كيف حالك؟.

-كما ترى.. الحمد لله

- متى اجازتك؟.. فالإجازات قد فتحت

- الاسبوع القادمً اذاً.

- بلغ سلامي على كاكه رشيد الصغير.

- شكراً .. اني في شوق اليه.

- لا تنس ان تجلب لي سن ذئب آخر.

ضحك ثم نظر باتجاه العدو وتحجر كأنه صنم ، غسلته بنظراتي .. رأيت يده مضمدة بلفاف طبي وملطخة بدم جاف..

- ماهذا ؟

- جرح بسيط.

- متى جرحت؟! لِمَ لم تخبرني لنرسلك للطبابة؟

- الجرح بسيط لا يستوجب ذلك.. انه يتماثل للشفاء.

- مناحي ، ونحن في هذا المكان ماذا تتمنى ؟.

- اتقصد نهاية الحرب ؟.

- نهاية الحرب ونهاية العدو لأنها مقرونة بنهايته..

حينها وقفت. قلت في نفسي انه بدوي ، يعرف الحقائق التي يجهلها العالم ، أو يتجاهلها.. فعلاً انها اعظم الاماني.. اتركه باتجاه مفرزة (البي كي سي) ثلاثة جنود يحيطون بهذا السلاح الذي قتل الكثير من أفراد العدو، كان بينهم (جويد مهاوي)، رجل ضخم الجثة حين يضغط على الزناد لا يمكن زحزحته، يظهر كانه صخرة .. انه من اهالي النجف . يطلق جويد عنان سلاحه بعد أن اعطيه الضوء الاخضر باتجاه اهداف معادية هو يعرفها . بعض المقاتلين الجيدين قد جرحوا والبعض الآخر استشهد ولهذا شعرت ببعض النقص وقلة الكثافة النارية التي أسلطها على العدو.. خلاصة.. انها لم تكن بتأثير الايام الاولى..

سريعاً ما يرد العدو على ضرباتنا له ويمطرنا بوابل من رصاصه . مع نفسي أحصيت عشرة شهداء وسبعة عشر جريحاً.. أغلب الشهداء كانوا نتيجة القنص . لم يفارقني منظر سقوط ثامر شهيداً .. كان جالساً بجانبي يتحدث لي عن تعلق امه به لأنه الوحيد لها وله سبع أخوات ، قال انها في كل اجازة تملأ جيوب ملابسي بالأدعية وقطع خضراء تأتي بها عند زيارتها لمراقد الأئمة . قال :كنت أضحك في نفسي من تصرفها هذا ولكني اعطيها الحق ، انه مجرد عامل نفسي يساعد على اطمئنانها.

وهو بجانبي جاءته رصاصة قناص اخترقت رأسه من تحت أذنه اليسرى وخرجت من وجهه ، لم ينطق بكلمة.. غير اني شاهدت لسانه يتدلى ثم سقط على وجهه.. رفعته واذا بلسانه قطعة من طين طري.. ثامر نايف سقط هكذا ورحل دون أن يكمل حديثه معي.. أمشي في الشق أتطلع للملاجىء التي اتسعت وصارت شبه فارغة.. امامي مواضع الرشاشات والبنادق لكنها مصوبة باتجاه العدو.. استخدمنا بعض الاشياء لغشها وعدم كشفها من قبل العدو. لكن طول مدة بقائنا وكثرة رمينا جعلت العدو يعرف بأمكنة أسلحتنا..

امشي في الشق وعيناي في وجوه الجنود.. ارهاق.. تعب.. احتراق الأعصاب ، تناقص في عددهم ، انتظار النهاية هذه هي حال من تحرقه الحرب بتيارها..

احمد الصويلح يظهر امامي. يبتسم لي.

- الله يساعدك احمد..

- هلا سيدي.

- متى تتزوج؟.

- بعد انتهاء معركة الفاو.

- وهل ستنتهي؟.

- حتماً لابد من نهايتها.

- لماذا لم تأتِ بالربابة هنا؟.

– لن نتمكن من العزف عليها هنا. ان انغام الرصاص تعلو.. وتعلو.

– حين تهدا الأمور.. ويتحسن وضع الجبهة اجلبها الى هنا ، انها تزيل احزاننا ، نريد ان ننقي قلوبنا ، نزيل تراكم الحزن والدمع في المآقي.

– ان شاء الله.. انها في الخلفي.. عند عريف المشجب.

– في المشجب ؟!

– نعم.

ضحكت من كلامه هذا وتصرفه الغريب ، آلة موسيقية في المشجب بين الاسلحة.. أيجوز ان تتوسط آلة الفرح أدوات الموت والدمار؟..

يرمينا العدو بأسلحته المختلفة.. بالرصاص الخفيف.. نرد عليه.. أرى هاشماً يطلق عنان سلاحه نحوه مسنداً ظهره للشق. عاصفة من نار صار المكان.. التراشق. صوت يعلو يذكر الاحياء بالأموات ، يوصل بينهم.. أأمر الجنود بزيادة الرمي على العدو حتى لا يتمكن من رفع رأسه ويستمر قصفه لنا.. يصبح القتال ضارياً ، يتقاطع الرصاص بين الجانبين.. تتشقق الاكياس الرملية من كثرة ما أصيبت.. ينخر الرمل فيها وتكون أسمالاً.. هي لحظة التفاعل ونسيان النفس. يسقط هاشم في الشق.. أركض نحوه.. يتبعني احمد الصويلح.. أرفعه من الارض ، الدماء نبع حار تخرج منه ، تصبغ ملابسه ، احاول أن أوقف نزف الدماء الحاد دون جدوى.. يصفر وجهه ، يشحب ، يشهق خشخشة ويسلم الروح.. دون اي كلام غير

نظرات كان يصوبها باتجاه السماء التي أغبرت من الرماد.. يفز احمد الصويلح وبيده البندقية فوق الساتر ، بدأ يطلق بعنف.... بعنف وسرعة أناديه:

- احمد.. أحمد.. انزل انك مكشوف حتى قدمك.. لا ينتبه لي ، يقذف المخزن الفارغ بعيداً ويركِّب الملآن كأنه انسان آلي وهو فوق الساتر متصلباً مطلقاً النار بكثافة باتجاه العدو وعليه ملامح الغضب الكبير.. أصيح عليه:

- انزل.. انزل.. ان العدو يرد عليك.. يركز باتجاهك.

لا يأبه لكلامي ، لندائي ، او لا يسمعني من شدة الرمي ، انه يطلق الرصاص وهو في العراء بلا ستر قاطعاً خط الافق..

ينتزع المخازن من احزمته ويركبها في بندقيته التي تلتهم العتاد.. وتطلق الرصاص باتجاه العدو.. باتجاه الموضع المعادي الذي جاءت منه طلقة القناص التي قتلت هاشم.. أفقد اعصابي . اركض نحوه لانزله عن الساتر ، تسقط قذيفة معادية بين اقدامه . ويغمره التراب والبارود والدم . أقلبه.. دم ينزف من بين فخذيه ومن اماكن اخرى.. قال لي وهو ينظر في دمه النازف:

- الآن ارتحت. أظن اني قتلت ذلك اللعين.

- انك جريح .. انك تنزف

- اعلم ذلك.. اظنها بسيطة.

يتراكض الجنود نحوه.. وبيدهم النقالة.. يحاولون اخلاءه.. يرفض. يريد البقاء. أجبره على الاخلاء.. فلا زال جرحه حاراً لا يؤلمه.. بسرعة شعرت انه بدأ يعاني من

الآلام والدوار.. يضعه الجنود في النقالة وينطلقون به نحو المفرزة الطبية في مقر الفوج.. اما هاشم فلا زال راقداً في أحد الملاجىء ينتظر الليل لاخلائه طالما انه قد فارق الحياه..

الموت عادي هنا ، مثل الطعام ، مثل الكلام ، مثل توالي الأيام. طالما انهمر الرصاص ، الموت يجري دون توقف.. هذا الفعل يكون الاخير.. نهاية المطاف ، القتال وحتمية لابد منها.. انه النهاية المشتركة لكل شيء حتى الاحاسيس تموت او تتلاشى ببطء.. الحرب اعصار من نار وحديد يجتاح الارض لكنه يبدأ من عقول القادة .. وينتهي في اجساد الجنود. في قلوب الامهات وفي دموع الارامل..

أسحب الخطى الهزيلة باتجاه ملجأي ، أجر الكلمات: الوداع المؤلم.. أرتمي في حضن التمني ،الآلام صفة فينا.. وجذر من جذورنا التي لا تنقطع.. رائحة الدم تدخل رأسي.. والبارود اعصار الخوف يترسخ في الرأس المؤلم.

من باب النار الى باب الجحيم يأخذنا هذا العالم ويرحل بنا دون سؤال منا او ممانعة . رائحة الموتى من قريب وبعيد ، في السماء لهيب عال وصمت مطبق ، انظر في ما ترى العين من فضاء قحل من ارض جرباء .. لا شيء يتحرك .. شيء يثير في النفس الارتياح ، كل ما حولي بضعة جنود.. واجساد تذوب في الارض . او موت الشفقة.. هذه بقعة من أرضٍ على كوكب مهجور..

احث الخطى المعوجة بفعل تعرج الشق لأصل ملجأي ، الوحدة تيار العالم الجارف الذي سكنني وألقاني هنا.. وجعلني كل لحظة أرى الموت .. ارى نهاية الاصحاب واودعهم بيدي..

تحط الطيور على آثار الذاكرة ، على سلم الارتقاء نحو نعشها .. تعود حالة الرحيل بلا قيد الى مخيلتي .. أرسم نهاية وردية للحرب ، اعود الى قرى منسية في حقول بعيدة ، لانهارٍ ذات ماء زلال ومنظرها يأخذ شكل الأماني ، شكل الحنان.. هذه أشواقي المحاصرة مثلي ، هذه صور فارقتني من دون وعي وعادت وسط المحرقة.. لأكن صنم المقابر المندرسة .. حارسها الوحيد ودرب الهضاب المتعرج.. هنا يجب ان ابكي ، لكن الدمع يمانع ، يجب ان اتوارى . ان لا اكون ، ان اسير عكس النهاية..

ادخل ملجأي، بيتي ، مكان الجسد المترامي ، الحجرة الوحيدة التي تحويني دون كلل ، دون كلام ، ألقي بالأحداث خلف ظهري .. اغلق وراءها باب الزمن ، باب المسير بالتوقف . يتسع الملجأ لاكتظاظ الانفاس والاقدام . لقناني الماء الثمين الذي كان يساوي عسلاً ايام المعركة الاولى.. الذباب يطير ويحط في الجحور الصغيرة.. هناك دفتر صغير قربي أسجل به أسماء الشهداء والجرحى في السرية.. وأية مستجدات وتعليمات ، بيدي قلم عتيق رخيص الثمن هزيل الخط.. أفترش أكياساً توجد شمعة هي مصدر النور ليلاً الى حين.. اقترب مني هاجس النوم والنعاس والملل الذي فاق التحمل.. الخدر بين اشياء تافهة لكنها ضرورية هنا ليس لك ان ترتفع فوق السقف فالقنص مستمر بلا نهاية لتجلس الساعات ، الايام لكي تبقى.

الوقت ظهراً.. اذاً نحن مازلنا نعرف الوقت والجوع يتغلغل في احشائنا ، اقترب موعد الغداء.. أو فات ، هذا متوقف على مجيئه من عند المساعد الذي لا يتوانى عن ارساله بسرعة لكن القصف يؤخر الجندي الذي يحمله ساعات.. احياناً لا

يصل الا عندما تغيب الشمس.. الخطوات الثقيلة المتسارعة التي يولدها المقاتل ناصر هارف وهو يحمل طعامي اليّ تفتح الشهية ، رغم انه رز ولحم مستورد ليس به أي لذة.. يقترب من باب الملجأ والعرق يتفصد من جبينه.. يسبقه ظله حين يحبو على الباب ليدخل.. يصيح قائلاً:

- اليوم جاءتنا حلوى هدية.

- جميل.. اننا بحاجة الى طاقة . الى لذة.

- انها هدية اتحاد النساء.

- يا نساء ؟.. ليس للنساء مكاناً هنا !.

- من كل اتحادات المحافظات ، حلويات ، خبز ، فاكهة ، تمر ، طرشي أشياء اخرى نصيبنا كان الحلوى.

- اعطني اياها لأرى .

- خذها..

أخذت الصندوق الكارتوني المبقع بالسمن. قرأت من خلال بقع السمن ، هدية اتحاد نساء نينوى .. مع تمنياتنا بالنصر التوقيع: رئيسة الاتحاد ..!!! ماذا ؟!! اتحاد نساء نينوى ؟!! ايمان.. ما هذا؟ هذه آخر الوسائل التي تذكرني بك. آخر الذكريات الى هوى القلب .. هناك آخر الاراضي التي تحويني دون خوف ، بلاد متسعة للعشاق.. أزهارها بمدى النظر تهتز طرباً على انغام النسيم.. الاشواق.. انفجارات الروح وطموحها الى العبث.. الحنان محطة يقف عندها القمر المنهك..

قومي نطارد طير المساء الوحيد كما كنا ، قومي نشاكس موج الغدران الصغيرة المحاطة بالعش.. ونفترش القمح الاخضر ، قومي لنختفي خلف سراب القلب ودخان الانفاس.. لنرحل الى الثلج ، الى هدوء الاماكن.. هذي براري قلبي تقفز نحوك ، تستبشر بالقادم ، بالمطر الهادىء الذي يأتي بالخضرة.. هذا عالمي رغم واقع المأساة لن أنساه.. هذا طريق النجاة رغم نار الخداع.. ألا يكفي هذا التباعد.. هذا التشرد.. هذا الانتظار الذي يذيب قلبي بين الجحور.. سأسلم النهاية للغد الذي لا يرحم واخفي أحلامي في الذاكرة التي هي ما تبقى من رحيل شعاع أضيء فضاءات العالم الداكنة .. عليّ أن احضر كفني كي أرى موتي ، كي أرى مجدي ، كي أرى منبع الدود من جسدي.

وانت انهمار المطر على مقبرة منسية ، بقايا غابة من ثلج ، أنت عشق المستحيل وتيار البحار حين يدخل العمق.. يدخل القلب.. عودي الى ما يجعل الأيام عادية مملة ، كوني كالنساء متقلبة ، فانت في زمن التناقض .. أنت دفتر الزمن الممزق ومفكرة الايام الباقية .. كوني سهلاً بلا أشواك بلا ملح أو شوك وحشي لم تمسسه يد أحد ، كل هذا عائد لك ، لقرار اليأس ، لقرار الانتحار الذي تتخذه لحظة السقوط الكبير ، حين نستيقظ من حلم الشباب ، من اماني الطفولة..

الآن توخز ذاكرتي لغة الفراش والوسائد الوثيرة.

اليك أصبو.. ارحل يا حلم المسافات المختصرة.

هذا ظلي بلا قلب.. وهذا كياني بلا شعور ، اليك أرحل ، اليك ارجع ، وانت قمر تداعبه الاطياف ، وهوى الربيع الى الحقول .. هذي جراحي ، دنان الدم التي

انفجرت.. وهذا قلبي المكتئب أبداً .. أرسم في مداكِ انطلاقي.. الى معشوقتي وهنا ألقي الأيام بأسى.. سأبكي لعلي أغسل حزني ، وألقيه على الملح ..كوني البداية.. البداية.. كوني كقلبي الذي يتبعك كما هو عباد الشمس حين يلاحق أشعتها..

آه لهذا الفراق.. لهذا البعد الذي لا ينتهي.. لهذا الحزن الذي يشق الجوى ، الى عينيك اصوب نظرات الضياع.. وأبحر الى حنانك اللامتناهي.. يا لهذه الشاردة في تأملي ، يا أنا الضائع في وصفها.. متى نلتقي.. متى نتحد.. وعلى اي الاراضي سيكون انحدار الدموع المحصورة وانا هنا في كنف الملح والدم.. أسوق الافكار والأمل الذي لا يغيب أبداً.. لا أعود الى الصواب.. الى الجنون.. سأحصر التأمل في الشفاه الوردية والعيون الزرق.. وأجتر كلمات انسابت الى اقصى زوايا القلب.. ماذا أحب ، وكيف اجتاحني اعصار الحياة الوحيد ، وهنا بالتحديد في غابات الخراب المخيفة.

يا سيدة البداية الحقة.. يا حب الانهار الابدي للنهاية.. أنكِ لا تفارقيني أبداً.. احقاً أنا ذلك العاشق ، ذلك المحاصر بهذا الخوف.. لأخرج اليكِ ، لأسع فوق هذا السراب وليكن المأتم فرحاً طاغياً والحصار انطلاق الحرية الكبرى.. أرسم الكلمات التي أوقفتني ردحاً من الزمن لاجترها هنا.. لأبكي في صمت النفوس المكبلة بالواقع والنار..

تقولين احبك بلا ندم.. بلا توقف.. والى آخر الايام وأنا اقول لماذا هذا الحب ، وأنا سدي الفشل والخوف والمأساة؟. وأنا محاصر بين الذاكرة المهووسة والموت القريب.. وأنا بحر الخراب المر ، وحزن الثكالى.. وانا المجيء المبكر والقدوم الذي

يجب أن لا يأتي الآن ولا هنا.. تقولين لا أفسر حبي لك ، ولا افهمه.. انه يدفعني نحوك كالموجه الى شاطىء الصخر ، كالنهر الى البحر.. وانا اقول لماذا أجرفك معي هكذا.. انني سيل مخيف لا يتوانى عن جرف الاشجار التي هي أنتِ ، انني اجرفك معي هكذا دون وعي فيك.. الى بحر مظلم ، نحو ضياع دائم.. احاول أن أبعد الافكار عنك.. فتكونين فكراً معقداً.. من شمس قلبي التي غربت وهي تهلل الدمع الاخير.. ومن عبث الأيام السكرى هذا البقاء على الأثر.. خذيني الى النهايات الفارغة المليئة الى البدايات العاصفة ، الى بقايا القلوب المحشوة بالإحباط؟، هذا فصل حريق الحب.. هذا أوان انتشار المشاعر الزائفة وشيوعها والتهامنا لها واستسلامنا لها دون سؤال من أين تأتي منقذتي الآن في هذا التناقض الوحشي؟..

ايمان حروف البداية والخلق.. ساعات الزمن المزهر.. عام الفرح الفريد ، بداية ؟، اشراق الشمس ونهاية الليل ، انطفاء المشاعر في جوى القلب.. ايمان سلام العصافير في الفجر الضبابي الابيض. تحطم وردة السهل الوحيدة في يدي . هوى الكبرياء الوحيد. صفاء الذهن الجامح.. ايمان نسيم الحياة المنعشة، مرسى التلال التي تعدو في الغروب بلا خوف ، بلا تعب ، صحراء الثلج الناصع وخضرة الغابات الغامقة ، زرقة البحر الكبير.. انحناء السنابل الممتلئة ، حنان البرتقال الى يد العشاق.. ايمان حلمي الذي أمسكه في اليد الى الابد.. وافكار هي عمري ، هي المسافة بين المحيط والصحراء.. بين الوردة والفراشة .بين المنجل والقمح الموصلي الاصفر.. هي فرح الصغار صباح العيد وانهمار المطر الجليل في سهولنا المترامية.. ايمان دمع لؤلؤي انهمر في ظلمة الليل فأضاء ليل النساء الفاتنات.. هي معبودتي التي أعبدها بلا خوف .. بلا شك .. بلا اضطراب ، حبيبتي رغم هذا البعد ، هذا

الذي حدث ، لا زال في يدي مفتاح البقاء في العلى ومجاذيف الرحيل الى النجاة ، وعند عدوي رصاصات الفناء..

الآن... الآن يغزوني كل أسى العشاق.. الآن ..الآن أحزن الافكار الحارقة في الجبين وأنتهي نهاية النهار والمطر.. صوري تجتاز حصاري.. وآمالي تبتسم سخرية من جسدي الذي يضايقه ملجأ الملح الرطب.. جسد ثقيل احتوته الارض حياً رغم النقص ، موجود رغم العدم. ما زلت أبحث عن اصولي في الجذور الساقطة، مازت آمل في الفروع الواعدة.. واخرج حين أصعد نحو تيهي لأرى بقايا الشاهدة.. والثلوج الباردة..

زحام النار يجلجل في الاراضي الهامدة.. فوق الارض السبخة سقطت حلويات نينوى.. هنا اكلت ، هنا اعطت اللذة والقوة ، أقلب صندوق الحلويات ، بقع السمن والزيت تُغرق كلمات الاهداء الذي جادت به أيادي اتحاد نينوى.. الموصليات محافظات يعشقن الرجل الجاد.. مخلصات للمحب.. هكذا عرفت.. هكذا هي ايمان.. كما هي أرض نينوى التي تنتج الملايين من اطنان القمح.. يغزوني الذباب.. يحط فوق الصندوق.. الذي جاء بالمن والسلوى ، جاء يغسل الروح بالذكريات التي اعادت لحظة الخصب.

في الحصار تهرب الى الاطياف. كما الغرقى لوسائل النجاة ، هذه أشواق مستحيلة ورغبات تأتي من العمق.. أو كلما نرتدي الحب تُعرينا الحقائق والمصائب ، أو كلما نضحك ملء أشداقنا تسوقنا الدموع نحو الاحباط العالي ، هذه أطرافي الهزيلة.. وهذه مداعبات الهواء لها ، وهذا حصاني يجثم فيّ غضباً.. وانا أرقم الايام في جدار

الملح ، اسميها اياماً وهي عجلة تدور حول نفسها برتابة ، من يسلب لب عواطفي غير انتِ ؟. من يأتيني بالجدوى غير طيفك ؟. وهل ألقي بكياني خلف أحاسيس الحب؟. لا انني لا أملك نفسي حتى باب ملجأي ، حتى آخر الحقول المنسية..

نكبر، نكبر كالمآسي.. نرحل.. نرحل كالأنهار.. نحاصر ، نحاصر كالدموع في القلوب الجافة.. تتلاشى كآخر السحاب في صيف ملتهب الحر تسقط في انتظار النهاية كالقبور يا لخسارتي الكبرى.. يا روحي انفجري فوق الجثث . او عودي الى دفء الامكنة البعيدة.. سلامي نار واحتلالي أثر. جفوني خشب ، عيوني حجر.. أتصلب كالزمان العاتي ، وأرتمي في حضن السأم.

ما زلت ارحل في سنة الحب التي ستطرد سنة الموت أو تأتي على أثرها ، اضيع في متاهات الحياة .. في عبث فارغ وأترك الأحداث تجري كما تشاء.. أهرب منها اليها ، اتوارى بدخانها ، من جاء بالأطياف هذه ؟ من اطلق الذاكرة المحاصرة هكذا بلا توقف ؟. من سلم زمام الحب للتأمل الحزين ؟. أنتِ يا قمر تكامل فوق الثلج ، يا وردة اهتزت في الفجر مداعبة الفراشة الوحيدة ، انتِ يا فرس الروح الجامحة ، وسلام المتعبين وصمت الغابات في الظلمة ، عطاء الشمس بلا مقابل ، جنة الحلم ، واحلام الربيع ، هنا الملح.. هنا الشظايا ، الموت ، الحصار.. أنا الذكريات ، دموع متحجرة ، اجساد بلا كفن ، طوق في الاعناق ، سجن الحياة الدائم ، اجترار الايام الثقيلة. هنا نزف أبدي.

لغة النار ، فضاءات الموت الواطئة ، التلاشي ، الذوبان في الارض ، الترسبات ، نهايات الفصول، ملح الجنوب ، أرضه، شطه ، غرينه... بائعات الهوى..

المتفرجون، الكلاب التي تنبح من وراء ظهورنا. لا ليس هذا.. أننا آخر الاحياء، آخر الامم الشريفة ، أسياد فوق الموت...

****

يرن جرس التلفون.. في القلب.. في الروح.. في الرأس عفوياً لا ارادياً ، تلتقط الحاكية يد المخابر طه.

- نعم... تفضل

- ....

- بلغ ... بلغ ...

يدير وجهه نحوي بعد ان وضع الحاكية مكانها...قال ستقصف طائرتنا المواضع التي أمامنا.. هذا ما قالوه في التلفون.. الموضع الذي امامنا مزروع بالمقاومات الارضية..

بالرباعيات التي تستخدم ضد الطائرات والمشاة.. ما أكثر تأوه العدو من ضربات طائراتنا.. لقد أصابته في الصميم .. كم من هجوم معادٍ فشل قبل أن يبدأ ؟. كان يعد له العدة بفضل الطائرات ... وفي اثناء المعارك كان للطائرات دوراً كبيراً في حسم المعارك . فجأة تنقض ثلاث طائرات نحو اهدافها كالكواسر.. سيل من القذائف يدك الارض ناراً تتقد في المواضع ، دخان يتعالى من التراب .. ترد المقاومات الارضية المعادية.. ترتفع الطائرات في عنان السماء وتختفي عن الانظار.. لحظة وتعاود الكرة بشكل سريع . الانفجارات تتوالى في اكداس العتاد ومعدات العدو.. تعود الطائرات أدراجها.. أحدق فيها وهي تغادر ساحة المعركة باتجاه الغرب نحو قواعدها التي أنطلقت منها.. (سيخوي ٢٢) جاءت لتدك العدو، الطائرة التي لعبت دوراً كبيراً في تدمير الموجات البشرية ، سيخوي أخذت أسم المخترع الروسي الذي صنعها.. لقد مات في منتصف السبعينيات. أنا اجثم في حجر الملح. احدق في بقايا السحاب الذي تركته.. أرحل نحو تيهي ، نحو آمال الطفولة والعنفوان الى تلك الطائرة التي احترقت في صيف تموز وانت فيها.. كاظم لقد صرت جزءاً من دخان تلاشى في أفق الحر.. في سماء ملتهبة.. أي قرار سأقرر؟. أي قول سأقول في هذا المكان المروع يا صديقي. يارحلة الايام الجميلة . لِمَ هذا الرحيل المبكر؟. لم هذا الاختيار؟. لم هذا الموت بين السماء والارض؟. فوق غيم أبيض سقطت بقاياك الصغيرة وسقطتُ أبحث عن دموعي ، عن نصفي الذي اختفى . هيا في هذا السراب ، لِمَ تأتيني دائماً كلما جاءتنا الطائرات ؟. كلما يتقطع ازيزها في رأسي ، انك تسبقها الى ذاكرتي.. سأعترف... وسأعترف الاعتراف الاخير يا صديقي.. من قال اني سأبقى بعد هذا الجحيم ؟. عليَّ أن

أعي الحقيقة الآن.. أن اقول كل الاسرار. أعطي لزوجتك ما أرادت. لقد كانت محقة حين طلبت مني أسرارك ، أفكارك ، مغامراتك ، قيمك ، تطلعاتك ، أسماء عشيقاتك ، كل ما يتعلق بك بعد الخروج من هذه النار ، بل في أقرب اجازة.. اني اخاف ان تذهب ادراج النسيان.. علينا أن نزرع في صغارنا شيئاً منا. علينا أن نهب أبناءنا ذكرياتنا الجميلة ، طموحاتنا ، احباطاتنا ، مغامراتنا ، ولهذا سأودع كنز عمرك القصير لابنتك الصغيرة (دنيا) ساحملها همّ الآباء وأحلامهم التي تناثرت في العلى، لأنها تشبهك تماماً وخاصة حين تضحك ملء شدقيها... ماذا سأخسر اذا عرفت زوجتك المسكينة كل شيء عنك؟. انها يجب أن تعرف ، اعتقد ان هذه ارادتك ورغبتك لو كنت حياً.. لكني كنتُ متردداً قبل هذا الوقت ، قبل أن ارى سيل الموت حول ي، كنتُ أريد ان أفاجىء بها دنيا الصغيرة عندما تكبر ، كنتُ اتمنى أن ابوح لها بأسرار تكشف لها ان والدها رجل له أحلام الدنيا وله طموح بقدر ما بالحياة من احباط..

اعترف في وسط غابة الجحيم انني جرحت كبرياء زوجتك عندما رفضت ان أعطيها كل اوراقك ، كل مخلفات حياتك.. لكني تصرفت وفق ما يمليه عليَّ واقع الصداقة التي جمعتنا والأسرار التي بيننا والمواثيق التي اذا أبيحت ستغير الكثير وستخرج الكثير من تحت الارض ويسقط الكثير الى العمق.. لا أدري متى كان لقاءنا الاول ، متى كانت صداقتنا ؟. كل ما اتذكره اِنا ولدنا أصدقاء تسكننا روح واحدة.. لكنك أسرعت بالرحيل و اخترت طريقة النهاية . أو ربما النهاية أرادتك هكذا في ذلك المكان.. سأقص عليها كل المغامرت التي قمنا بها ، كل المخاطر التي صادفتنا أو اقتحمناها... انها تستحق ذلك لأنها زوجتك التي احتضنتك يوم طاردوك ، يوم

نبذوك ، يوم صرت على لسان الوشاة كاللعاب ، حين طردك ابوك غاضباً متجهماً في وجهك يرفض مصافحتك لماذا ؟. لسبب يعتبره في قناعته عيباً.. يا لهذا العناد الأهوج.. هذا الظلم الذي أصابكما ، سأعطيها ما تريد ، وما ترغب لأنها كانت لك مأوى وأماناً في الليالي التي كنت فيها بأمس الحاجة للمأوى ، للحب. سأحدثها الى آخر العمر عن كل شيء.. عن أي شيء لأنها تستحق ذلك أقسم.. أقسم سأعطيها كل ما تريد.. يا صديقي.. حين اعود من هذا المكان لأنها احق بأسرارك مني ولهذا سأتصرف وفق ذلك..

- سيدي...سيدي.

- نعم.. نعم.. طه ماذا بك؟.

- لا شيء... أنك تحدث نفسك... انك تهذي.

- انها الحرب اتعبتني ، شتت أفكاري ، كنت أحلم لا غير.

- سأذهب لأنام قليلاً في الملجأ الذي قربنا انه خالٍ.

- كما تريد

طه كثير النوم لا يأبه بالقصف ، حتى وسط النار يمكن ان ينام. له هدوء عجيب واطمئنان عالٍ.. حين يأخذه النعاس ينام مهما كانت الظروف وكان الموقف ، لكنه يستيقظ سريعاً عندما يرن جرس التلفون ويتحدث كانه لم ينم اطلاقاً ، شديد الولع بالخمر والنساء ، يحبها بجنون ، لا يتوانى عن الحديث عن محاسنهن مهما كان الوقت ومهما كانت المواقف.. حكمته التي يرددها دائماً :

(أسقني الخمر و متعني مساءً واذبحني غداً)

حين دخلنا معركة الفاو ، بعد اسبوع دخل عليّ متوسلاً يريد النزول الى البصرة.. قلتُ له لماذا هذا الاصرار؟.. ان اهلك لم يشتاقوا لك بعد لكي تخابرهم.. أبتسم حينا وقال انني احترق للخمر والنساء . ابتسمت وقلت : أفي هذا المكان؟!..

قال ان هذا في دمي ، ثم هذه الحياة بنظري فقط.. أرسلته الى البصرة.. وحين جاء في اليوم الثاني كانت البسمة على شفتيه وفوق شاربه الكثيف الشعر.. قال لي انه ضاجع امرأة قبل ان يشرب الخمر في الفندق حتى هربت مذعورة في منتصف الليل.. يا لها من امرأة .. لم تستطع البقاء معي حتى الصباح.

الحر يجعلني اتململ وأضجر فالساعة قاربت الثالثة عصراً.. بضع قنابل سقطت قرب مواضعنا.. أو فوقها ، فالعدو لا يوقف قصفه لنا بعد أن أستمكننا جيداً ، لقد صمدنا كثيراً في وجهه و اوقعنا خسائر كبيرة ولهذا فهو لا يتوانى عن قصفنا باستمرار.

ثلاثون يوماً هنا.. وسط اللهيب ، وسط الموت العادي ، الغريب. ثلاثون يوماً وسريتنا تقف بوجه العدو صامدة رغم ما أصابنا من خسائر.. ثلاثون يوماً من الموت البطيء .. من النار التي لا تهدأ. من الحرب الضارية الشرسة.. ثلاثون يوماً من السهر ، العطش ، الجوع ، الخوف ، القلق ، السأم...

أتطلع في أشيائي التي معي في الملجأ.. لكنها لخدمه الحرب ، لإدامة زخمها. حشد هائل من الاشياء. كيف احتواها ملجاي؟. أمسك بيدي دفتر الملاحظات.. أقرأ

أسماء الشهداء ، الجرحى.. أتوقف عند أحمد الصويلح.. انه الآن يرقد في مستشفى البصرة العسكري.. قررت أن أزوره في اجازتي في أقرب فرصة .. احمد الصويلح ، هذا الرجل الذي علمني الكثير.. لقد كان يغني وسط النار ،، كان يقاتل في العراء.. مثل ما غنى في العراء.. هكذا تكون أيامنا دائماً ويبدأ عمرنا من الخريف وينتهي به وليس غير ذلك .. نحصد التعب فقط رغم ركضنا وراء الثمر.. نسقي زهورنا بماء الروح فيقطفها الغير بعنف.. شوق ، شوق للمجهول. خوف ، خوف منه ، هروب اليه. هكذا دائماً نحن نسأم من ذراع الواقع الملتهب الى الحريق الشامل .. دعونا نتنفس بلا خوف ، دعونا نعيش قناعاتنا ، مبادئنا ، نرسم الأماني فوق منصات الخطابة وعلى سرف الدبابات المدافعة عن الوردة الرائعة .. هذا عالم مختلف عما نريد ، نريد صلاة بلا زيف.. نريد مجد الاوائل وصدقهم.. انهم يتفقون على قتلي ، على تركي وحيداً في الضباب لأني الوحيد الذي اعرفهم على حقيقتهم .. انهم أعدائي منذ الازل . منذ شقت الارض فكيف يحبونني .. الا تثقون بذلك. الا يكفيكم لوماً لي .. انهم اعدائي. أعدائي ، ايها الاخوة الصم الضعفاء...

يرن جرس التلفون.. التقط الحاكية.

-نعم.. مقدم هذال... اهلاً سيدي.

- هيء نفسك وجماعتك للانسحاب.

- الانسحاب؟!.

- نعم نهاية الضياء الاخير سيبدلنا الفوج الثالث من لواء (٧٠٤).

– امرك سيدي.

أنادي على رأس عرفاء السرية عكموش محمد ، يأتيني والتعب بادٍ في ملامحه. اوجزه بما قال المقدم آمر الفوج بأمر الانسحاب وتهيئة المكان للسرية التي ستحل مكاننا.. ينصرف ليهيء الجنود للانسحاب..

أقلب دفتر الملاحظات.. انه شاهد على احداث شهر من القتال الضاري ، من المعاناة ، من الصراع.. أقرأ في صفحة

الموجود الكلي: تسعون

الجرحى والشهداء: ثلاثة وسبعون

الحاضر سبعة عشر

سبعة عشر؟! ما تبقى من جنود السرية بعد شهر ، لكننا لم نعطِ شبراً واحداً من الارض التي وطأناها .. لقد أوقعنا في العدو أضعاف هذا العدد.

المساء الاخير هنا.. يأتي متثاقلاً متباطئاً.. الشمس هادئة حين ترحل نحو المغيب ، والسماء صافية فيها بعض الشفق الذي كثفه الغيم الخفيف.. تصلنا الطلائع الاولى من جنود السرية التي ستحل محلنا وجوه في تردد وترقب ورهبة من المكان الغريب المحشو بالأجساد الميتة والحية.. يستقبلهم جنودنا.. يدلوهم على المواضع ، على اماكن تواجد العدو وطرق تقربه ومصادر نيرانه.

أصافح آمر السرية ملازم أول عماد.. أعطيه ما يحتاج و اشرح له جبهة المعركة.. واوجز له بما يجب ان يعمل وما لا يعمل ، يستمع الى حديثي بصمت . أشد على

يده. اعطي نجاح خبر التسليم لآمر الفوج المقدم هذال.. وأسحب السبعة عشر باتجاه المساعد نحو المنطقة الامنية .. الظلمة سقطت فجأة ، أشعر ان أرجلي غير قادرة على المسير من كثرة الجلوس في الملجأ .. في الشق الضيق حديث الذكريات يتفوه به الاحياء من جنودي ، بعضهم يتأسف على رفاق جاؤوا معهم ولم يعودوا. انها الحرب. الحرب... آخر الطرق للتفاهم ،، آخر الوسائل للدفاع عن المبادىء.. نصل المنطقة الآمنة التي تقع عبر جسر الموت بمسافة كيلومتر ، نجد السيارات امامنا ونصعد فيها لتنقلنا الى معسكر (الدريهمية) لإعادة التنظيم والاستراحة.. لنكمل بعض الأيام بأمان وننام ملء جفوننا دون خوف ، كل هذا الى حين.. الى معركة اخرى...

****

خرجت من الفندق بملابسي المدنية .. تعودت ان أخلع ملابسي العسكرية عند صاحب الفندق الذي ألفني وأخذ يحجر لي أحسن غرف فندقه ، اودع عنده ملابسي العسكرية اذا كنت مجازاً لحين عودتي من الاجازة .. في الفندق انطلق بعد ان نمت البارحة مبكراً ، كان الوقت العاشرة والنصف صباحاً.. استقليت أول تكسي وأنطلقت باتجاه مستشفى البصرة العسكري .. نصف الساعة واكون امام الباب الرئيس له ، أدخل الفناء الطويل الذي يشرف على غابات النخيل وحمرة ورود ناعسة تداعب أشعة الشمس.. المستشفى بناء قديم أبيض اللون به ملامح العهد الذي قضى ست سنوات وهو يقدم خدماته لجرحى الحرب ، ست سنوات وهو يغص بالقادمين من جبهة الحرب ضد ست سنوات ومن به يواصلون السهر والتعب والعمل المتواصل.. من اجل الذين سقطوا دفاعاً عن الارض.. الكل هنا يعمل بصمت دون كلام.. من ماسح الارضية حتى آمر المستشفى.. انظر في الوجوه، تستوقفني النساء الممرضات، جميلات، فيهن خفة الدم البصري واللطافة وهن يرتدين الملابس البيضاء يظهرن أكثر براءة.. اكثر اناقة، وجوه المرضي تحدق في صمت باتجاه السقف او في وجوه المراجعين من الناس الذين دأبوا المجيء لزيارة ذويهم.. الامهات والزوجات والحبيبات والاطفال يتقاطرون وبأيديهم ما اعتادوا ان يجلبوه رغم تحذير وممانعة المستشفى.. حين دخلت المستشفى لم أسأل الاستعلامات عن عنوان احمد الصويلح في أي مكان يرقد، حيث اخبرني عريف المشجب حمزة، الذي زاره بأنه في الطابق الاول غرفة تسعة وقال انه يتماثل للشفاء بسرعة وانه قد جلب له ربابته.

الحركة دؤوبة للمارة وانسياب جميل يجري بصمت لكل من في هذا المرفق الصحي الذي يحتضن الجرحى القادمين من السواتر المشتعلة ناراً.. ادخل غرفة رقم تسعة، ثلاثة أسرة فارغة لا احد بها، فوق السرير الذي قرب الشباك المطل على النخيل تجثم ربابة مع قوسها، انها بعينها تلك الربابة التي انساب منها لحن في ملجأ اثار انتباهي في ذلك الليل بشرق البصرة، ملقية دون اكتراث..السرير مبعثر بصورة فوضوية.. الأدوية والحبوب تتوزع بعبث فوق الارضية والسرير وتحت الوسادة. أجلس فوق السرير الذي عليه الربابة، اداعب وترها بأطراف أصابعي ثم أتركها.. احدق في الجدران المطلية بلون ازرق فاتح نظيفة رغم قدمها.. ماذا يعني الازرق الفاتح؟. انه مصدر الامل انه لون يهدئ النفس المضطربة.. قلت لنفسي سأبقى هنا حتى يعود احمد الصويلح. من المحتمل انه في دورة المياه أو خرج للفسح في هذا الصباح المشرق الذي تنساب نسائمه الشمالية، بعذوبة تجعل ورد حديقة المستشفي متراقصاً.

ربما هو في غرفة العمليات..انه في مكان ما من المستشفى وسيعود.. احمدالصويلح ستتزوج بعد شفائك.. ستزف أحلى الحانك، سيغني لك في العرس كل أهل قريتك الذين لم يعرفوك حتى هذه اللحظة.. كل الغجر الذين خاصموك.. كل من يحضر.. حتى الحقول.. والدروب المنسية في الغابات وحقول القمح الواسعة.. سيغني لك كل من يحضر. من هي صاحبة الحظ التي ستكون لك وتكون لها؟.. من ستغني لها أحلى الحانك؟، من ملهمتك حتى النهاية؟، من التي ستعطيها حنانك الذي بحث عن أرض، عن صدر تذرف دموع الحرمان فوقه؟..انها حقاً سعيدة ...بل أسعد امرأة في الارض.. اجيل نظراتي في السريرين الخاليين الذين

امامي ايجوز ان تكون الغرفة لاحمد الصويلح وحده أم انهم خرجوا سوية؟.. ان ذهب هؤلاء الثلاثة لا ألومهم.. ان أيام الستشفى لا تطاق.. مملة ورتيبة. اذاً لأنتظر بعض الوقت سيعود حتماً.. أسال نفسي متى سنرجع الى المدينة.. الى واقعنا، الى بيوتنا، الى نسائنا،الى نومنا العميق.. حين يلقي العدو السلاح ويصافحنا بطيب النية وسلامتها؟. متى نطوف احراراً في مدننا دون خوف من القصف المعادي؟. متى نسهر حتى الفجر.. حتى الثمالة.. حتى احمرار الجفون وانتفاخها؟ متى نتزوج ونبقى شهر عسل كامل مع زوجاتنا دون أن نسمع للحرب حديثاً وللموت صدى؟.. كل هذا حين نودع الحرب.. حين تندثر اطماع الاعداء...

فجأة تدخل الممرضة الى الغرفة وبيدها مجموعة أوراق تتوقف عند الباب ثم تدخل. اغسلها بنظراتي السريعة..

تسلم عليَّ:

- صباح الخير.

- اهلا صباح النور.

- منذ متى أنت هنا؟.

- منذ نصف الساعة.

- جيد.. انك نشيط.

- أين صاحب الربابة؟.

- ماذا يعني لك؟.

- صديق.. انه احد جنودي الشجعان.

- أيهمك امره ؟.

- ارجوك لا تفاجئينني.. قالوا انه يتماثل للشفاء.

- هو كذلك.. قد شفي ولكن.....!

- لكن ماذا؟.

- آسفة اذا أقول ...لقد انتحر.

- انتحر!!..ماذا؟!. ماذا اسمع..!.. هل أصدق ما تقولين؟!.

- كما قلت لك.

- كيف؟.

- انتحر بالحبوب المنومة... لقد تناول عشرين قرصاً الساعة الواحدة ليلاً فوجدناه ميتاً في الصباح وهو الآن في التشريح.

- لماذا انتحر؟. لا أصدق انه مقبل على الزواج .

- هذا هو السبب باعتقادي.

- ماذا تقولين.. هذا هو السبب.. لا أفهم؟. لا أفهم وضحي بربك.. متى شاهدتيه آخر مرة ؟.

- البارحة ليلاً كانت المرة الاخيرة التي اشاهده فيها.. لقد رايته يعزف على الربابة وهو يذوب في ألحانه ويغني غناءً أبكاني ومن معي.. لقد تجمع حوله كل المرضي ومنتسبي المستشفى.. طيلة عمري لم أستمتع بأي عزف مثلما أستمتعت البارحة. لقد سالت الدموع مدراراً من العيون كان يغني والعرق يتفصد من جبينه ممزوجاً بالدموع التي انهمرت فوق الخدود دون توقف.. قال الآن التهب الحلق من حر القيظ ومحله، صار الجبين مرآة الشمس التي تحترق منذ أول الايام دون أن تطفئها الريح.. هذا هدفي وسيبقى، لأغني لعلي امسك بزمام الحب الذي هرب.. الانهار دميَّ البارد وثلج الجبال أفكاري التي جمدوها...سيبريا...سيبريا.. ابتعدي...نجد... نجد... التهميني أحضنيي قبل موتي.. احرقيني لأعيش من جديد. انا ملاح الرمال المتحركة والاكفار المتجددة. أنا عيون تحدق بانتباه باتجاه الظلام القادم من الشرق الذي أرقني .. وأخذ عزتي.. مثل ما أرق من قبلي الآباء الاوائل..بعدها قال كلمته الاخيرة (أرجوكم غادروا الغرفة. انها الليلة الاخيرة) انصرف من في الغرفة كلهم وبقيت انا آخرهم..أردت أن اعطيه العلاج.. لكنه رفض.. وقال لا فائدة بعد الآن.. وبقي يطرق نظراته باتجاه الشباك الذي تداعبه سعفات النخيل، يتأمل الضوء الساقط عليها قلك له وداعاً... انصرفت.

- اتعلمين لما انتحر؟.

- اعتقد انه قرأ التقرير الذي كان يجب أن لا يقرأه وهو في هذه الحالة..

ثم ناولتني أياه..

قرأت الاصابة (كانت الاصابة في مكان حساس، لقد أصيب بشظية حادة قطعت خصيته).

انصرفت الممرضة بعدها وتركتني وسط الغرفة وحيداً.. سالت دموعي بحرارة. نظرت باتجاه الربابة.. ملقاه في طرف السرير.. أستجلي بقايا الذكريات.. آخر الانغام التي أنسابت من وترها الوحيد، لماذا اختارها بالذات، ربما لأن بها وتراً واحدا منفرداً مثل حياته المنفردة الشاردة.. أرفعا من فوق السرير.. أحدق فيها لعلي أجد آثاراً لأنامل و أشواقاً فوقها..ماذا ترك غيرك؟. الاثار التي عليها.. غير البصمات.. هذه الربابة شاهد كبير وعالم يتحدث عن صاحبه، عن فارسه الذي حمله الى هنا.. ثم رحل بعد ان غنى أغنية الوداع.. لقد كان النغم نهاية لعمره...اللحظات التي يفارق بها وجوده..

تدخل الممرضة ثانية.. تعطيني ورقة وتقول.

- السيارة تنتظرك في باب المستشفى..

- السيارة.. سيارة من ؟

- التي بها الشهيد لتأخذه الى أهله..

اصمت كأني ميت منذ عصور بعيدة.. ماذا؟..اهله؟!..

اتصلب.. اطلق البصر باتجاه الشباك الذي قربي... أغيب..

تناديني:

- لا تتاخر. ليس من المفيد ان يبقى هنا هكذا، اوصله الى اهله.. الى زوجته.الى أطفاله، فكل شيء انتهى..

التقط الربابة وانطلق مذعوراص باتجاه السيارة التي تنتظرني في الباب. ودون كلام أفتح الباب وأجلس بجنب السائق الصامت. انطلقت السيارة في شوارع البصرة المزدحمه بالمارة والسيارات.. في الشوارع التي مزقتها قنابل القصف المدفعي البعيد المدى.. بسرعة يجتاز السائق المدينة ويقودها باتجاه الشمال. كان الوقت عصراً ونحن نودع غابات النخيل الكالحة التي هجرها أصحابها من شدة القصف.. أرى البيوت الخالية.. تآكلت وصارت آثاراً للزمن الحاضر. الصمت سيدنا هنا في هذا السفر... السائق الاصلع.. وأنا والربابة التي على المقعد الخلفي.. احمد الصويلح بتابوته الذي يجثم فوقنا على المحامل الذي خصصت لنقل الشهداء يلفه علم الوطن...الريح تداعبه بعنف.. كلما التهمت السيارة شارع الاسفلت.. نمضي الى أين، ونحن دائماً هكذا في الحياة وربما بعدها.. نسافر الى الحلم، الى الآمال فنقع في وحل هزائمنا.. احمد الصويلح النسيان بذاته.. الصراع في أشده.. الحياة التي أراد ان تكون فكانت العكس.. أمنيات بالهدوء، بالفرح الذي لايباع ولا يفقد فيصاب ببركان المآسي، بالصمت ، بالطعن ، سيد هذا الزمان ، الموت وهو يجتثنا من جذورنا، من احبابنا، مخيف هذا الوقت الذي نلقي بين يديه على هوانا أو بالاكراه، نرتمي فلا ننهض هكذا الى الابد، لأن طريقتنا في الحياة ليس لها مثيل وان اشتعالنا من الاعماق حتى النهاية.

تسافر المعاني والكلمات امامي، تسبقني الى الفراغ، الى التيه، أين سأتوجه ومعي جثه أحمد الصويلح؟.. في اي ارض سيكون مثواه بجنب مضارب الغجر؟. ام في مقبرة قريته التي لم تعرفه حياً فكيف اذا كان ميتاً؟. انني سأترك الجثة تختار مكانها حيثما شاءت، لاغمرها في الثلوج التي فوق الجبال، سأغطيها برمال صحرائنا الغربية، سأدفنها في غابات البردي، في طرق حقول القمح الواسعة ،..لِمَ كل هذه الحيرة؟. سأحتفظ بالجثة عندي، في مكان بعيداً عن العالم لتكون جزءاً من أسراري، أحمد الصويلح هكذا أنت دائماً حيرة كبيرة ورحيل في الحياة والممات..

تلتهم السيارة الشارع الطويل.. تعبر مدينة العمارة بمسافة لا أعرفها، الشمس انحدرت نحو الغروب.. صمت السائق يطول.. أهو أخرس.. أنتابني هذا التصور.. هذا الاعتقاد ربما أنه يفكر بمشاكله مثلي.. الغبار يعبر الشارع، الرمال تدحرجها الريح، كثيفة وهي تجتاز الشارع.. هذه منطقة رمال متحركة.. قالت القطعة التي امامنا... أصيح في السائق:

- خذ يميناً.

- الى أين؟..

- في عمق الرمال المتحركة.

- أين أهلك؟،

- خلف تلال الرمال هذه..

ينظر في وجهي والحيرة واضحة عليه، يدير مقود سيارته دون كلام وينحدر من الشارع باتجاه الارض ذات الرمال المتحركة..أشعر أن السيارة بدأت تلاقي صعوبة في اجتياز طيات الرمل.. أنظر ورائي، اختفى الشارع الرئيس عن الانظار، لقد توغلت السيارة مسافة كبيرة في الرمال.. أأمره ان يتوقف.. يغسلني بنظراته.. أفتح باب السيارة وأترجل وبيدي الربابة ويترجل هو أيضاً..

- هنا انزله.

- هنا؟!

- سيأتي اهلي انهم وراء هذه التلال الرملية ثم ان سيارتك لا تتقدم الى الامام اكثر من ذلك، ستغوص حتماً.

- هذا صحيح..

نتقابل وننزل التابوت.. ويصعد هو بسيارته.. ثم يعود باتجاه الشارع الرملي. الريح تكون تلال الرمال المتحركة في هذه المنقطة من الارض.. تيار من الهواء المتجه شرقاً يذري حبات الرمال ويجمعها ويفرقها. تتوغل في العيون، في الانف،بين طيات الشعر،، أنظر في المدى، لا شيء سوى قرص الشمس الذي مال نحو الغروب واصفرار الأفق وانعكاس الضوء في الرمال الزجاجية مكونة صفحة ذهبية.. وحيد انا وأحمد الصويلح والربابة.. ماذا يعني المكان؟. هنا سيتوارى شهيد، التلال الرملية تزحف ببطء، تتآكل، تكبر، تتلاشى،كل هذا بفعل اعصار الريح، اجلس قرب التابوت، علم الوطن يحتضن الرمل،الربابة كتلة صامتة.. امسك بالقوس واداعب

الوتر ثم لا أعرف، لا اجيد العزف، لكني أريد أن افرغ سأمي في هذا اللحن و لا اتمكن، يخنقني الدمع. وحرارة اللحظة الموحشة.. احطم الوتر والقوس.. أفتح تجويف الربابة، احفر في خاصرة التل الرملية بالربابة التي صارت جوفاً يحتضن الرمل.. سريعا ما تنزاح الرمال ووتتسع الحفرة.. سريعاً ما نجد اماكن نهايتنا.. لحظة قصيرة ويكون الحفر عميقاً.. أسحب التابوت في داخل الحفره ثم أهيل ذرات الرمال فوقه بنشاط.. شيئاً فشيئاً يختفي التابوت، رويداً... رويداً يكون لاشيء.. تلاشى، غاص في الرمل، في خاصرة التلة.. أحمد الصويلح جزء من تلال متحركة في الارض التي لا تموت.

اعدل قامتي.. واجيل بنظري باتجاه الشمس، باتجاه الغروب، كانت الشمس قد تلاشت وراء تلال الرمل وغابت.

مساء السبت ٢٥\١٠\١٩٨٦

انتهت